
في الشكوى من ابن أبي الضياف وسائر أعدائه

رسالة المناعي

إلى المشير الأول أحمد باي

في الشكوى

من أحمد ابن أبي الضياف وسائر أعدائه

تقديم وتحقيق

أحمد الطويلي

الدار التونسية للنشر

حصـــل بهذا العمل على شهــادة الكفــاءة في البحث بملاحظة « حسن » بكلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس في جوان 1970 تحت اشراف الاستاذ احمد عبد السلام .

إلى رُوحِ الشَّيخِ وَالِدِي

الَّذِي مِنْ فَيْضِهِ مَتَحْتُ

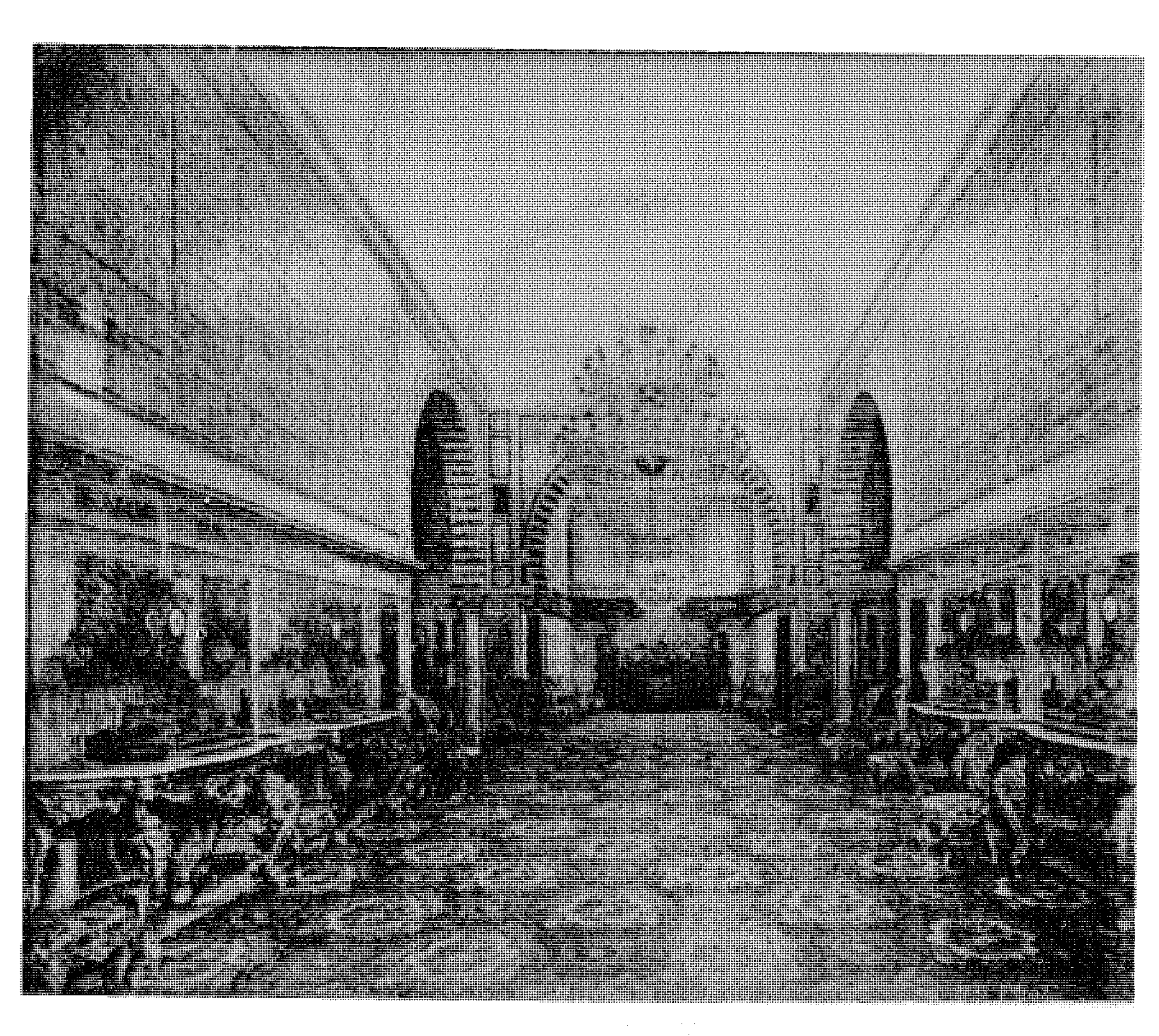
وعَلَى نِبْرَاسِهِ مَشَيْتُ



احمد باي الاول
الموجه اليه الرسالة



احمد ابن ابى الضياف
المشتكى منه



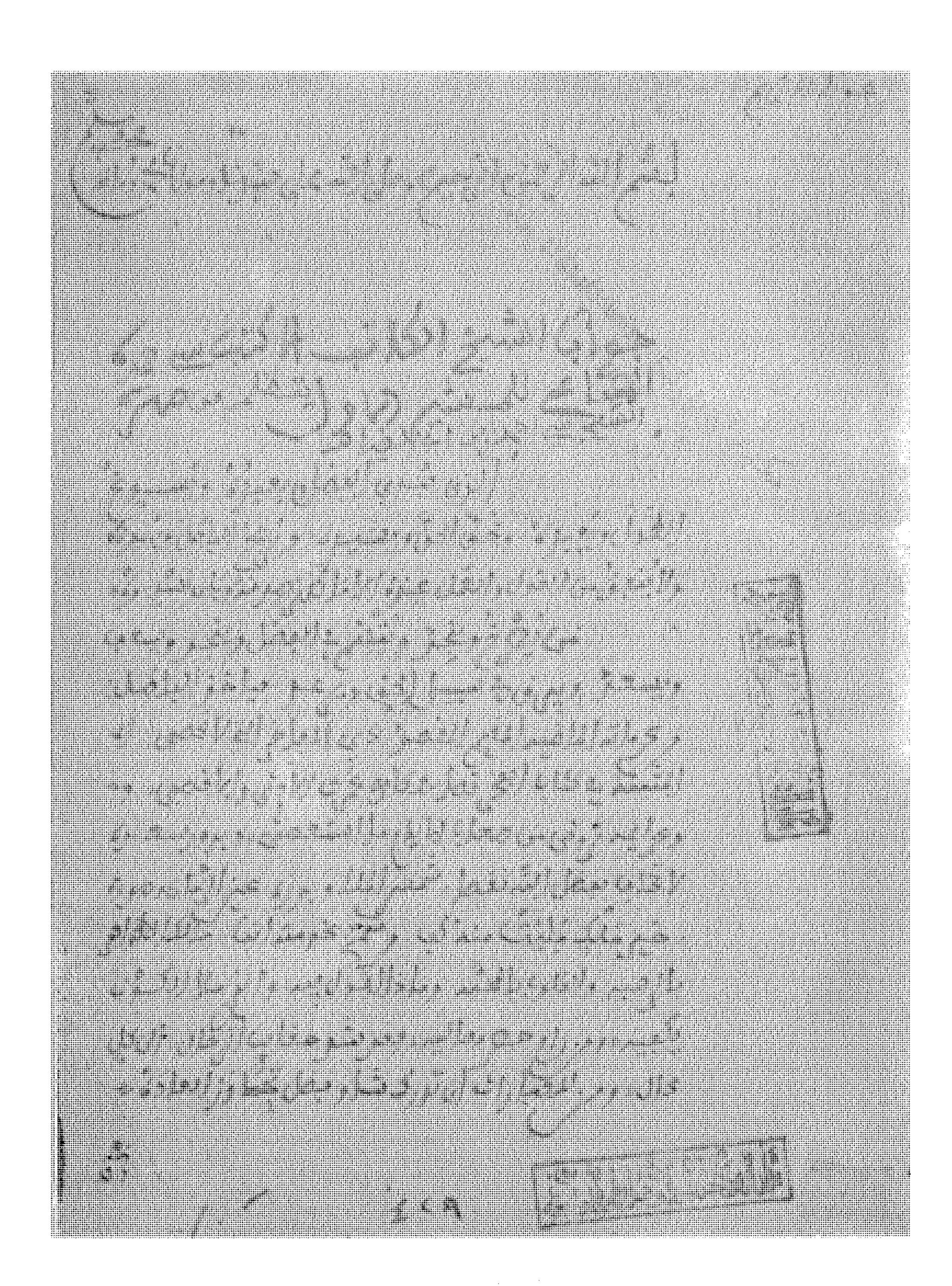
قاعة استقبالات الباى
بقصر باردو



محمـود ابن عياد
من ابرز مناوئي المنـاعي



الباجى المسعودى
من خصوم المناعى



الصفحة الاولى من المخطوطة « ا »

الصفحة الاخيرة من المخطوطة « ا »

بسم الله الرحمن الرحيم   وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

قصيدة للمناعي وبخطه
من كنشه رقم 589 16

بقيـة القصيـدة

بسم الله الرحمن الرحيم

المناعي وعصره

يتميز العصر الذى عاش فيه المناعى (م. 1857) ، وهو العصر الذى سبق اعلان الحماية الفرنسية على تونس (1881) بولاية وال من أبرز الـولاة الذين حكمـوا تـونس في العهد الحسينـي ، وهو المشير الاول احمد باى الذى وجه اليه المناعي رسالته، وقد تولى الحكم على تونس ما يقرب من عشرين سنة ، منذ انتصابه على العرش سنة 1837 ، الى سنة وفاته 1855 ، فطبعها بطابع عصرى ، ووجهها صوب تيار الحضارة الغربية (1) وحرص على دعم أركان الحياة الثقافية بها ، وارساء أسسها الفكرية التى أثرت فى حياة البلاد فكريا واجتماعيا (2).

ويحتل أحمد باى مكانة مرموقة بين البايات ، بداية من مؤسس الاسرة الحسينية سنة 1705 ، الى نهايتها واعلان الجمهورية محلهـا يوم 25 جويلية 1957 . وقد حكمت هذه الاسرة تونس مدة مائتين واثنتين وخمسين سنة ، وتوالى فيها على الحكم تسعة عشر بايا (3).

---

1) انظر : J. Ganiage : Les Origines du Protectorat Français en Tunisie PUF - Paris 1959. Publication de l'Institut des Hautes Etudes de Tunis p. : 177 sq.

2) انظر : ح ح عبد الوهاب : « **خلاصة تاريخ تونس** » ط 1336 خاصة ص 177 ـ 181 .

3) محمد الصالح مزالى : « **الوارثة على العرش الحسينى** » ص 8 ـ 9 الدار التونسية للنشر . 1969 .

ويذكرنا دور المشير الاول في تاريخ تونس بدور معاصره ، والى مصر ، محمد علي (م. 1849) (4) اذ « أخذت به الحكومة في طور جديد ، وكانت له همة عظيمة ، أكبر من حالة القطر » (5) .

ومن الاصلاحات التي أدخلها على البلاد ، اصلاح التعليم بالجامع الاعظم ، رتب به المدرسين ترتيبا محكما (6) ، وأنشأ فيه المكتبة الاحمدية ، وأثراها بالكتب النفيسة (7) .

وقد أثر أحمد باي في حياة البلاد الفكرية ، اذ كان يحب العلم ، ويشجع على طلبه ، ويعظم العلماء ويعرف منازلهم (8) ، وكان ولوعا خاصة بفن التاريخ وبالاخص بمقدمة ابن خلدون (9) ، مما جعل كثيرا من الادباء يهتمون بهذا الفن ، وينشطون للكتابة التاريخية ، ويولون المقدمة عناية فائقة (10) ، وحتى المناعي صاحب الرسالة ، فانه لم يسلم من ذلك التأثير ، ونراه يستشهد بابن خلدون (11) ، ويتأثر بمنطقه في ادلائه بالحجج التي من شأنها أن تدحض ادعاءات أعدائه .

---

4) انظر : جان جانياج : نفس المرجع : ص 177 .
5) محمد بيرم الخامس : «**صفوة الاعتبار**» ج 2 ، 6 .
6) « **الاتحاف** » : ج 4 ، 65 .
7) نفس المرجع : ص 49 .
8) نفس المرجع : ص 179 .
9) نفس المرجع : ص 179 : « واذا ذكرت له مقدمة ابن خلدون يقول لي : نعرفها ويستشهد منها بما يوافق غرضه » .
10) نذكر على سبيل المثال بعض المؤرخين التونسيين الذين ظهروا في القرن التاسع عشر : احمد ابن ابي الضياف « **اتحاف اهل الزمان ، باخبار ملوك تونس وعهد الامان** » .
الباجي المسعودي « **الخلاصة النقية في امراء افريقية** » .
محمد ابن سلامة « **العقد المنضد في اخبار المشير احمد** » وهو مخطوط .
11) « **رسالة المناعي** » : ص 96 .

فكان هذا العصر عصرا علميا ، ازدهر فيه الادب بفنيه شعرا ونشرا (12) .

ويمكن أن نعد أهم حدث ثقافي فيه هو افتتاح مدرسة باردو الحربية يوم 5 مارس 1840 (13) ، وهى مدرسة عصرية جلب لها الباى جماعة من الاساتذة الاجانب من ايطاليا وفرنسا وانقلترا ، وأدخل فيها تدريس العلوم العصرية والكونية من رياضيات وطبيعيات ، ومدفعية ومختلف الفنون الحربية ، واللغات كالفرنسية والايطالية ، وولى فيها تدريس العربية الشيخ المصلح محمود قابادو (1802 ــ 1861) (14) ، وقد مكنه منصبه التعليمى فى المدرسة الحربية من أن يبث فى اطارات الجيش التونسى الوعى الدينى وأن يحض طلبته على تلقى العلوم الكونية والرياضية (15) .

وقد بعثت هذه المدرسة بدماء جديدة فى شرايين الثقافة التونسية اذ كانت مركزا لترجمة الكتب الفنية ، ونقطة التقاء بين ثقافة الغرب العصرية ، وثقافة تونس التقليدية ، والتقى فيها اساتذة اجانب باساتذة تونسيين وتلامذة .

---

12) توجد كنشات عديدة بدار الكتب الوطنية تحفل بالاشعار الراجعة الى هذا العهد لا تزال مخطوطة ، وهناك ايضا دواوين مازالت تنتظر التحقيق والطبع . جمع بعضها محمد السنوسى فى اجزاء .

13) **الاتحاف** : ج 4 ، 36 ــ 37 .

14) نفس المرجع .

15) انظر الجزء 2 من « **ديوان محمود قابادو** » ، تونس . د. ت. : ص 33 ــ 60 : ديباجة لترجمة تاليف فرنسى فى اصول الحرب ، ذكر فيها قابادو نظريته الاصلاحية وآراءه الجديدة .

ويحدثنا صاحب الاتحاف ، أحمد بن أبى الضيـاف ، عن هـذا المعهد فيقول (I6) :

« رتب الباى مكتبا حربيا بباردو ، وجعله فى صرايته التى انتقل منها الى قصره الجديد ، لتعليم ما يلزم العسكر النظامى من العلـوم كالهندسة والمساحة والحساب وغيرها ، ولتعليم اللغة الفرنساوية ، لان أكثر كتبها مدونة بهذه اللغة . ورئيسه العالم الماهر الامير آلاى كالى قارّس ، من أعيـان ايطاليا . وجعل به معلما للقـرآن ومدرسا لعلوم العربية وما يلزم ديانة . وأول مدرس به العالم الشريف الاديب البليغ أبو الثناء محمود قابادو . بحيث يخرج التلميذ عالما بما يلزمه ضرورة فى غير العلوم العسكرية ، متضلعا باللغة الفرنساوية وبما يلزم العسكر من العلوم العقلية » .

وكان الباى يزور بنفسه تلامذة هذه المدرسة « يرغبهم فى اكتساب المعـارف التى هى آلـة التقـدم الحقيقـى ، وينفـرهم من معـرة الجهـل ... » (I7) .

وقد شهد ابن ابى الضياف نفسه بازدهار الحياة الثقافية بهـذا العصر رغم نقمته على الباى ، وانتقاده الذريع لسياسته وحكمه المطلق غيـر المقيد بشـرع أو شـورى ، وتصرفـه الاقتصـادى المقيت ، المـزرى (I8) .

I6) **الاتحاف** : ج 4 ، 36 — 37 .
I7) نفس المرجع .
I8) انظر الجزء 4 من « **الاتحاف** » ، و « **العنوان** » ج 2 ، I30 — I3I .

قال ابن أبي الضياف :

« وفي هذه الايام ، نفق سوق العلم ، وتجدد شبابه ، وسال سيله ، وعب عبابه ، وانفتح للاجتهاد بابه ، وتظاهرت اسبابه ، واشرقت بافق هذه الحاضرة نجوم وأهلة ، هم الآن شموس وبدور ، تتجمل بها المحافل والبدور » (19) .

وثمة ظاهرة أخرى نلاحظها بهذا العصر وهي بروز الترف والتبذير والانفاق باسراف على اللباس والعيش والملذات ، والتأنق في المظاهر (20) .

يقول ابن أبي الضياف : « ومن أيامه ابتدأ التأنق والترف في الكراريس والابنية الضخمة ، وغير ذلك مما يدعوه ترف الحضارة ، والناس على دين أمرائهم [. . .] وجعل نواشين الافتخار » (21) .

وفعلا ، فقد سلك الباي ومن تبعه من الوزراء والكتاب ورجال القصر ، سياسة التبذير والاسراف ، وهي سياسة لا تتناسب مع موارد الدولة (22) .

---

19) « الاتحاف » ج 4 ، ص 67 .
20) E I 2 فصل احمد باي .
21) « الاتحاف » ج 4 ، ص 167 .
22) E I 2 فصل احمد باي .

وقد اتهم المناعي بالاسراف (23) ، وليس بالبعيد ان تكون هذه التهمة شائعة في أوساط الاعيان ، والمقربين من الباي ، اذ تعود الكثير منهم على اثقال أنفسهم بالديون ليسدوا هذه الرغبة (24) .

وتوجد ظاهرة أخرى بهذا العصر وهي ظاهرة تعدد المجالس الادبية كانت تنتظم في قصور الامير أو في قصور الخاصة .

فقد بدأ البالي عهده ، منذ الايام الاولى من ولايته ، ببناء القصور الفخمة بباردو (25) وحلق الوادي ، والمحمدية أنفق فيها الاموال الطائلة التي استنفدت معين الخزينة العامة ، وتألفت بمجالس الامير في هذه القصور جماعة يأنس اليها الباي ويتألفها (26) تلتقي في اجتماعات أدبية وفنية وغنائية ، وكثيرا ما كانت تصل اليه فيها الوشايات والسعايات ولكنها كانت لا تحركه (27) .

ولئن كانت رسالة المناعي صدى لهذا العصر، فهي خاصة مرآة لما كانت تتخبط فيه الدولة والبلاد من ضيق مالي ، وتدهور اقتصادي ،

---

(23) انظر « **رسالة المناعي** » : ص 143 .

(24) نفس المرجع . ص 124 ، كانت الديون آفة ذلك العصر ، وكان الغرماء كثيرا ما يطلبون من الدولة الدين او تفليس المدين وسجنه . انظر اعلان فلسة حسين خوجة « **الاتحاف** » ج 4 ، ص 38 ، حتى ولي العهد لم يسلم من الديون، نجد الباي احمد في مرضه يدفع مالا ذا بال في دين على ابن عمه وولي عهده ، للوافدين من التجار : (نفس المرجع ، ص 167) .

(25) « **الاتحاف** » ج 4 . ص 16 .

(26) نفس المرجع ص 175 .

(27) نفس المرجع ص 169 .

وتأزم فى الميزانية ، ويرجع هذا الامر الى أن الباى قد استنفد أموال الدولة فى جمعه للعسكر النظامى وترتيبه وتدريبه، وانفاقه المسرف على القصور والخاصة مما أجحف بدخل المملكة وخرجها (28) ، ومما جعله يحدث ضرائب ومكوسا ، تعسف العمال وملتزمو الاداءات والوكلاء أيما تعسف فى جبايتها . ويصور لنا الجزء الرابع من «الاتحاف» تصويرا دقيقا ما منى به الشعب فى كامل التراب التونسى من ظلم وحيف وقهر .

28) نفس المرجع ص 169 .

حيــاة المنّاعي

ليس لنا ترجمات لحياة المناعي سوى نصين قصيرين : نص وارد في الجزء الثامن من الاتحاف (29) ، وهي ترجمة قصيرة ، موجزة ، لا تتجاوز السطور القليلة ، غمط فيها ابن أبي الضياف حقه ، بينما خص الوالد بترجمة طويلة ، ضافية ، ذكر فيها أساتذته وحدثنا عنه باطناب (30) . ونص آخر جاء في مجمع الدواوين التونسية لمحمد بن عثمان السنوسي وهو مخطوط (31) ، ولهذا النص أهميته لان صاحبه يعد المناعي من أهم شعراء تونس في القرن الماضي وذلك برصفه بينهم ، ومن جهة أخرى فهو يثير قضايا كثيرة ، اذ يتهم المناعي بتهم عديدة كالمجون وسلاطة اللسان وانتحال الشعر ! . .

أما الرسالة الادبية التي نحققها ونعلق عليها ، فلا نجد لها ذكرا في أي مرجع من المراجع ، فحتى المنتخبات الادبية التي جاءت بعده لم تتعرض لها أو لصاحبها ، ونعجب للمرحوم حسن حسني عبد الوهاب كيف لم يذكرها مع أن له منها مخطوطين .

وصاحب الرسالة أصله من أولاد مناع من دريد (32) ، واسمه

(29) « الاتحاف » ج 8 ، 103 .
(30) نفس المرجع : ج 7 ، 164 ، 166 .
(31) « مجمع الدواوين » ج 1 ، ص 154 — 163 ، مخطوط رقم 16.628 .
(32) « الاتحاف » ج 7 ، 164 .

محمد وأبوه محمد أيضا ، وجده سليمان ، ويكنى بأبي عبد الله كعادة تكنية الاسماء في القديم ، ويدعى حمدة تمييزا له عن أبيه ، أو حتى محمد حمدة كما في بعض الكنشات (33) . ونجد المؤلف يثبت اسمه في آخر الرسالة هكذا : « والسلام من [. . .] محمد بن محمد المناعي » (34) .

لم يذكر أحد تاريخ ولادته ، أما وفاته فقد ضبطها ابن أبي الضياف بشعبان من سنة 1273 (مارس ــ أفريل 1857) (35) . ولم يذكر السنوسي سنة الوفاة . ونحن نعتقد ان هذه السنة صحيحة لان المناعي من أقرباء ابن أبي الضياف وزوج أخته ولا يمكن لصاحب الاتحاف الحريص على ضبط الوفيات ان يخطىء في تدقيق سنة وفاة صهره .

فالمؤلف اذن قد عاش النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وسبع سنين من النصف الثاني ، عاش جلها في عهد المشير الاول أحمد باي (م. 1855) وعامين في مدة المشير الثاني محمد باي (م. 1859) . وتوفي المناعي قبل اندلاع ثورة ابن غذاهم سنة 1864 (36) ، وقد عاصر بوادرها ، وشاهد بنفسه اسبابها ، وعاين بداية الفوضى التي سادت بالبلاد فيما بعد واستفحل أمرها وعاني منها في حياته معاناة مرة .

(33) انظر « كنش الرياحي » (الفهرس) . رقم 18.906
(34) انظر « رسالة المناعي » ص 160 .
(35) « الاتحاف » ج 8 ، 103 .

فقد عرف المناعي أسباب افلاس الدولة من عبث المتصرفين فى أموال الدولة ، وسرقاتهم ، ونهبهم المقيت ، وتراكم الديون على الخزينة العامة ، وارهاق كاهل المواطنين بالضرائب والمكوس العديدة والمتنوعة (37) ، والتى تفننوا فى تنويعها وتفريعها وتعميمها ، ونقرأ صداها فى الرسالة ، لانها لم تكن الا وليدة لتلك البيئة الفاسدة التى اشتد فيها التعدى على الحقوق العامة ، وكثرت الشكاوى من المقربين الى البلاط ، وعم البلاد شر العمال والوكلاء والملتزمين والنواب (38) . اذ سلم لهم الباى مقاليد الامور ، وتغافل عن حيفهم وعسفهم ، ولحق أذاهم المناعي ، فكتب يشكوهم . ويندد بهم ، يفور عليهم سخطا وحقدا وثورة ، رغم مكانتهم المرموقة ، وما يتمتعون به من جاه ، وقوة ، وبطش ، وكان المناعي يعبر فى هجائهم ونقمته عليهم عما فى قرارة نفوس الشعب ، فكان اللسان الصادق ، المؤثر الذى يصور غضب الشعب ، ونقمته ، وطموحه .

ونحن لا نشك فى أن أصحاب النفوذ وذوى الجاه فى ذلك الوقت ومن بعده قد تحالفوا على اسكات هذا الصوت الناشز ، وقرروا تجاهله ، وضربوا عليه جدارا من الصمت والنسيان ، فلا نعلم شيئا عن حياة المناعي سوى أنه نشأ بين يدى أبيه فأحسن تربيته (39) ،

---

36) انظر : جان جانباج : الكتاب المذكور ص 217 — 274 ، وترجم هذا الفصل الخاص بثورة على بن غذاهم لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية ونشر سنة 1965 . (الدار التونسية للنشر) .

37) « **الصفوة** » ج 2 ، 4 ، « **والاتحاف** » ج 4 .

38) « **الاتحاف** » ج 4 ، 144 .

وانه حفظ كثيرا من المتون والشروح وقرأ على أبيه وعلى أعيان من المدرسين ولكن لا نعلم من هم ولا ما هي هذه المتون والشروح ! . .

ونعلم كذلك انه دخل ديوان الانشاء في حياة أبيه (40) في عهد حسين باي (م. 1835) ، ولكن نجهل الوظائف التي تقلدها فيه ، خاصة وأن ديوان الانشاء يعتمد خططا عديدة منها الكتابة والحساب (41) ، ونجد في الرسالة اشارات عديدة الى ما تولاه المناعي من وظائف وخدم برئاسة باش كاتب محمد الاصرم (م. 1861) (42) قد أنعم بها عليه هذا الاخير ، لكنه خرج منها مطرودا . .

فقد كان مكلفا بمداخيل الولايات ، بقسم الحسابات وسرعان ما رمي فيه بتهمة السرقة والنهب وبصرف ما تحصل من فاضل المال من الولايات في تسديد بعض ديونه ما مقداره نحو الالفي ريال وفي تبذيرها في لذاته ومتعه (43) .

كما اننا نفيد من الرسالة ، انه كان مكلفا بالمساجد اذ كانت بيده أوامرها ، ولعل هذه الوظيفة كانت تابعة لادارة الاوقاف ، خاصة منها القسم المكلف بأحباس المساجد .

(39) نفس المرجع ج 8 ، 103 .
(40) نفس المرجع .
(41) « الصفوة » ج 2 ، ص 2 .
(42) « رسالة المناعي » : ص 121 وما بعدها .
(43) نفس المرجع : ص 144 .

لكن هذه الوظائف تخلى عنها ، « ولم يصح منها فيما بعد سوى تسويد الصحائف » (44) ، ويحتج المناعى بأنه مظلوم وان الاصرم تسبب فى طرده .

بيد أن ابن ابى الضياف ، فى ترجمته المذكورة له يذكر أن سبب انفصاله عن الكتابة فى آخر حياته انما كان « لعدم مواظبته الخدمة » (45) ، ورغم ذلك فقد شهد صاحب الاتحاف ببراعة المناعى فى الكتابة وجمال الخط .

ونستنتج من هذا أن نكبة المناعى كانت فى أواخر حياته ، اذ تألب عليه أعداؤه ، وتعاضدوا على هتكه وتحطيمه بعد أن كان مقربا من بعض أفراد الاسرة الحاكمة خاصة ولى العهد ، قائد المحال ، وقد سافر معه فى كثير منها ، فأصبح بائسا ، فى حالة يرثى لها ، هو وأولاده .

ويذكر صاحب الاتحاف بؤس المناعى فى أواخر حياته وتعاسته فيقول : انه « عاش حليف اقلال واعسار » (46) وتوفى فقيرا .

وهذه الحالة التعيسة هى التى دفعته الى تحرير الرسائل المتعددة الى أصحاب الامر ، يلتمس فيها منهم بعض الخدم .

---

44) نفس المرجع : ص 124 .

45) « الاتحاف » ج 8 ، 103 .

46) نفس المرجع .

قال فى رسالة الى مصطفى خزندار ، متضمنة بكنش رقم 17878 :

« تعذرت على طرق الكسب والاحتيال ، وضاق علينا الحال ، ولو اطلعتم على باطن حال الاولاد والعيال ، وما يقاسونه من نكد العيش بعد التوسع والدلال ، لغلبتكم دموع الشفقة والرحمة ، واستفزتكم بواعث الهمة ، فان للخدام حقوقا يحفظها مثلكم ، ويرعاها فضلكم ، واضاعت اولادهم مما تشين ، ويأباها الحسب والدين ، ولى منذ أعوام نتردد على بابكم . ونترامى على تراب أعتابكم ، فلم استنشق ريح اقبال ، ولا واقع حالى منكم ببال ، مع أنى ما طلبت غاليا . ولا حاولت حاليا ، وانما نطلب تنظمنى فى سلك خدمك ، وتستعملنى فى صغار خدمك، أو تضعنى فى أتباع أحمد زروق، أو سيدى فرحات أمير لواء (47) . فالكل على حد السواء، فجميعهم فى خدمتكم، ومستمد من نور حرمتكم ، ونظركم أعلى ، وبكل جميل أولى » .

وتفيدنا هذه الرسالة افادة جليلة عما عاناه المناعى فى آخر حياته من الادقاع ، وبؤس الحال ، مع كثرة الاولاد ، اذ ضاقت فى وجهه أبواب الرزق وأغلقت ، وأطرد من خدمته ، وأقصى عن ديوان الانشاء ، ظلما واجحافا .

ويمكن اعتبار هذه الرسالة وثيقة هامة عن حياة المناعى اثر انفصاله من ديوان الانشاء ، اذ بقى أعواما عديدة بدون عمل ، وكان يحاول بدون جدوى أن يجد خدمة يرتزق منها .

---

47) امير لواء العسة على صراية الباى من العسكر .

فقد كان منعما برضاء محمد الأصرم ، رئيس ديوان الانشاء ، قربه اليه ، وأسكنه بجواره فى علو داره ، لكن سرعان ما قلب له ظهر المجن وقلاه ، وأقاله من خدمه العديدة .

وفى رسالة أخرى (48) موجهة الى أمير لواء العسة فرحات يقول انه قد ضاقت به سبل العيش فى بلاده ولم يجد بها متنفسا ولا مكانا رحبا :

« ولولا العوائق التى حالت بينى وبين المراد ، وضيقت على رحب البلاد ، للففت العزيمة وهاجرت ، واعملت الرحلة وسافرت » (49) .

وكان هدف رسائله ، يتمثل فى طلب الخدمة :

« وغاية رجائى أن تشرفنى ببعض خدمك ، وتنظمنى فى سلك خواص خدمك ... » (50) .

ويبدو ان المناعى لم يبعث رسالته الادبية الى المشير الاول الا بعد أن استنفد كل الوسائل ، ويئس من الجميع ، وحتى من الحياة ، وبرم بالعيش ، وتشاءم ، ونقم على الناس أجمعين ، خاصة على الكتاب ، وموظفى ديوان الانشاء وكل من يتمتع فى عهده بمنصب من

(48) الكنش رقم 17878 ، ص 4 .
(49 – 50) نفس المرجع .

عدول وقضاة وكتاب ... وأجبس بنفسه مضطهدا ، مظلوما ، لا سيما وان غيره من الموظفين لم يكونوا فى مكانته ، ولا فى مقدرته الكتابية وبراعته وذكائه .

قدم الشيخ السنوسى المناعى بقوله انه « أحد أعيان الكتاب ، وغرة جبهة الآداب ، المجيد فى النثر مع طول الباع ، المنفرد بفصاحة اللسان وكثرة الاطلاع » (51) .

لكن ما لبث المترجم ان وصفه بأوصاف ترجح الكفة ضده وتكشف لنا عن بعض الاسباب التى ألبت عليه أعداءه وحساده :

« غير انه بطر وأشر ، وأكثر من الهذر ، واستولت عليه من الاهوية الجنون ، فأكثر من المجون » (52) .

وفعلا فقد اتهم بتهمة المجون ، وشاع فى البلاد انه بالغ وأغرق فيه ، ونفر من زوجه ، اخت ابن أبى الضياف ، وكان المؤرخ يشكوه دائما الى الباى فيغض الطرف عنه (53) .

---

(51) السنوسى : « **مجمع الدواوين** » ج 1 ص : 145 – 163 .

(52) نفس المرجع .

(53) سمعت بعض النوادر ، فى شان علاقته مع زوجته وصهره احمد بن ابى الضياف . سأله الباى عن سبب نفوره من زوجه وعن الخلاف بينهما فاجاب : « زوجتى هى احمد بن ابى الضياف لابسا قوفية » فضحك الامير . اذ كان احمد بن ابى الضياف قبيئا غير جميل . (والقوفية : غطاء للراس كان يضعه النساء بتونس فى القرن التاسع عشر) وأخت ابن ابى الضياف التى تزوجها المناعى هى « ددو » وابنتها « محبوبة المناعى » تزوجت محمد العزيز بوعتور ولم تعقب . و « ددو » تزوجها بعد المناعى محمد بن عثمان جعيط .

وقدم لنا السنوسى صورة لمجلس من المجالس التى يحضرها المناعى (54) :

« فكان اذا حضر المجالس لن ترى غير الآذان منصتة ، لفصيح أجوبته المسكتة ، والقلوب ترجف من وقاحته ، والناس مع تحذرهم منه يميلون لفصاحته ، فكان لمحاسن آلاته ، يلبس على علاته ، ولسعة روايته ، يصبى الى رويته ، لخلبة عارضته ، يرغب عن معارضته » .

ونفيد من ترجمة السنوسى أيضا أنه كان سخى اليد ، كريما جدا ، « حتى انه كان أعطى برنسه من أعلى كتفيه لعدم وجدانه ، عندما قصده بعض الناس ، بمشموم فل حين أبانه ، وبقى من أجل ذلك فى بيته مقيما ... » (55) .

وهذا يفسر لنا أيضا سبب تبذير المناعى وافراطه فى صرف المال فى حاجاته وملذاته وسخائه على قاصديه .

والـده :

لئن كان صاحب الاتحاف قد خص الابن بأسطر قليلة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، فانه أطال فى ترجمة حياة الوالد (56) . كما أننا نجد ترجمة أخرى له فى شجرة النور الزكية (57) .

---

54) « **مجمع الدواوين** » : ج 1 ، ص 154 ـ 163 .
55) نفس المرجع .
56) « **الاتحاف** » ج 7 ، 164 ـ 166 .
57) « **شجرة النور الزكية** » : ج 1 ، ص 370 .

وهو أبو عبد الله محمد بن سليمان المناعي توفي سنة 1247 هـ / 1831 ـ 1832 م ، وكان من الشخصيات العلمية البارزة في عصره ، تولى الكتابة في ديوان الانشاء ، في ولاية حسين باي (تولى الحكم من 1824 ـ 1835) ، واضطلع بالتدريس بجامع الزيتونة فتخرج عليه نخبة من العلماء والادباء مثل أحمد ابن أبي الضياف ، ومحمد النيفر (58) ، وخاصة ابنه حمدة « رباه تربية حسنة ، وسلك به طريق العلم » (59) .

وله تآليف مهمة منها رسالة في الوباء واسمها « تحفة المؤمنين ومرشدة الضالين » ألفها لما وقع الطاعون بتونس ونواحيها ، وعم غواشيها وضواحيها ، وهي رسالة فقهية ، تتضمن أحكام الطاعون ولها صبغة جدلية تدل على تبحره في الفقه وأصوله ولا تزال مخطوطة في دار الكتب الوطنية تحت رقم 11.856 (60) .

ويعلمنا ابن أبي الضياف أن له رسالة في الوفاء ، ألفها بطلب من مخدومه حسين ، « ومن طالعها عرف مقداره » (61) ، ولم نعثر على هذه الرسالة ، ولعلها عند بعض الخواص ، وربما نسج على منوالها ابنه في رسالته هذه الى أحمد باي ، ولا يبعد أن يكون قد تأثر بها الى حد بعيد ، وقد علق ابن أبي الضياف ملاحظا أن الابن

---

58) انظر ترجمته في « **الاتحاف** » : ج 8 ، 111 ـ 114 .
59) نفس المرجع : ص 103 .
60) وانظر « **شجرة النور الزكية** » : 370 : ورد فيها ذكر رسالة جدلية بين المناعي الاب وشيخ الاسلام الحنفي محمد بيرم .
61) « **الاتحاف** » : ج 7 ، ص 165 .

« أربى في الصناعة الادبية على والده ، لو ساعده البخت » (62) .

وتلقى الوالد العلم بجامع الزيتونة على أيدى أشهر أساتذتها منهم صالح الكراش واسماعيل التميمى وابراهيم الرياحى وحسين الشريف وأحمد بوخريص ، ثم رحل الى المغرب الاقصى (63) ، فأخذ العلم بفاس على ايدى شيوخ مغاربة يذكر ابن أبى الضياف ومحمد مخلوف صاحب « شجرة النور الزكية » اثنين منهم وهما التاودى (64) واليازامى (65) ، وتمكن هنالك من الاتصال بصاحب الطريقة التجانية ، أحمد بن سالم التجانى (1737 ـ 1815 م) ، ولازمه وأخذ عنه مباشرة ، وصار من أتباعه ، يختلف كل يوم جمعة الى زاوية الولى يتغذى بتعاليمه، ويتشبع بالاوراد والاذكار ، ثم قوى الجاذب الروحانى الذى يربطه بالشيخ التجانى ، وتأثر به تأثرا سيكون له صدى فى تربيته لابنه .

واثر رجوعه الى تونس ، وانتصابه للتدريس بالجامع الاعظم ، قام بخطة الشهادة والتوثيق ليرتزق منها ، وتقدم للشهادة على جامع صاحب الطابع (66) ، واتصل بالباى حسين ، وتقلد مهمة الكتابة لديه وسافر معه فى محاله عندما كان ولى عهد .

---

(62) « **الاتحاف** » : ج 8 ، ص 103 .

(63) « **الاتحاف** » : ج 7 ، ص 166 .

(64) هو محمد بن الطالب الفاسى التاودى ، فقيه ومفسر ومحدث (م 1793) . انظر : كحالة ، « **معجم المؤلفين** » : ج 10 ، 96 .

(65) هو محمد بن عبد السلام اليازمى . هناك اختلاف فى حركة الزاى . انظر : « **شجرة النور الزكية** » ، ص 381 ـ القاهرة 1349 .

(66) «**الاتحاف** » : ج 7 ، ص 165 .

ونجد في الاتحاف أوصافا له كثيرة منها أنه كان طويل اللسان ، ثـابت الجنان ، بعيـدا عن الملـق والخضـوع ، يعـارض الاميـر والمأمـور (67) .

وتوفي وداره مرهونة في مال نفس به على صاحبه (68) .

---

(67) نفس المرجع . ، ص 165 .
(68) نفس المرجع : ، ص 156 .

آثاره ورسالته

عرف المناعي شاعرا وناثرا . لكننا لا نجد للمناعي الا أشعارا قليلة ، اتهم فيها بالانتحال (69) . يذكر السنوسي أن : « القصائد المشتهرة عليه أربع، روائع الفصاحة فيرياضها رتع » (70) . قالها خاصة في التهاني والمدح :

الاولى في تهنئة باش كاتب محمد الاصرم ، عارض بها قصيدة لابن الجهم ، وأولها :

ليالي الحمى، لله ما هجت في صدري   لقد قلبت ذكراك قلبي على الجمر

والثانية في مدحه أيضا وأولها

أما لشؤون العين بالدمع لا تهمني   فيشفي عليلا مستهاما من السقم

والثالثة في شكر نعمة أسداها له باش كاتب ، وهي أحسنها لصدقها وواقعيتها :

كفاك يا سقم ما أنهكت من بدني   أفوق ما نلت من ضعفي ومن وهني

ويا زمان لحى عودي مماطلة   رفه علي ، لحاك الله ، من زمن

أخنى على الجسم بل أودى بساكنه   فليس يلوي الى أهل ولا سكن

ألقى بوجهي لأوباش سفاسفة   أربى طلابيهم مني على محن

[...] منابت وأصول غير زاكية   تزهو كنابتة الخضراء في الدمن

(69) « **مجمع الدواوين** » : ج 1 ، ص 155 ـ 163 .

(70) نفس المرجع : 154 . وأشعاره توجد أيضا بكنش الرياحي رقم 18.909 ، ص : 140 ـ 148 . والقصائد الاولى من كنش المناعي رقم 16589 .

ومقدمة هذه القصيدة تذكرنا برسالته الى أحمد باى ، ولها صلة متينة بها ،

أما القصيدة الرابعة فهى فائية فى مدح باش كاتب أيضا ومطلعها :

أبى القلب أن يصحو هوى المقل الوطف

فيـا لـك قلـب مـا دعـاه الى الخلـف

ويذكر السنوسى له ، بالاضافـة الى هذه القصائد ، قصيدتـين أخريين : الاولى عارض بها قصيدة لمحمد الاصرم باش كاتب ، لكنها مختلفة عنها ، اذ بينما وعظ باش كاتب الامير بالصبر والعـدل وحذره من مكائد بعض الوزراء ووصاه بوصايا سياسية كثيرة (71) ، نجد المناعى يضمن قصيدته وصايا من نوع آخر فى التمتع بالحياة :

[...] واحـرص على فـرص اللـذائـذ كلهـا
فـقـد آذن المـيـقـات بـالايـنـاس

واشـرب عـلى ضـوء الـهـلال فـقـد بـدا
بـين السـراول فـى ضـيـاء الآس . . .

وهناك أبيات أخرى نظمها فى واقعة حال ، يخاطب فيها أحمد بن أبى الضياف يلومه على ابعاده عن مجالس الانس التى كان يعقدها مع خلانه ويلم فيها شمل الاصحاب من كتبة وشعراء ومغنين ، يجتمعون حول العقار ، يستمعون الى الغناء والشعر ، يقول فى هذه القصيدة :

---

(71) « **العنوان** » : ج 2 ، ص 116 ـ 117 .

أيكتـم مجلس عني لـعـمـري   وحـامضـه بـأنفـاسـي يطيـب

وما في حضرتي لـو شئت باس   ولا مـا فـاتنـي أمـر غـريـب

ومـا اعـراضكـم عني بسهـل   ففـي مضمـونـه أنـي الـرقيب

[•••] سأبرد بالملامة ما بقلبي   ومـا الشكوى ؟ ففي قلبي لهيب

واسمـح للحبيب بـهـا ولكـن   على شرط لـه تعنـو القلـوب

ونجد هذه القصائد مجموعة في كنش الرياحي ، وبعضها نجده بالكنش المجموع رقم 16511 الذي يحتوي ايضا على الرسالة الادبية . قد أوردنا هذه الامثلة من شعره لابراز نزعته الشعرية، والاغراض التي تغلب عليه ، وهي في أغلبها أغراض تقليدية .

اما نثر المناعي فهو يتجاوز بكثير شعره اتقانا وجودة ، ولم نعثر للمناعي ، عدا الرسالة الادبية ، الا على خمس رسائل موجودة بكنش رقم 17878 (72) ، ويمكن اعتبارها وثائق عن حياته ، خاصة في المدة الحرجة التي أطرد فيها من الخدمة من ديوان الانشاء ، فكتب

---

72) كنش ، صاحبه مجهول ، تحت رقم 17878 • اشترته دار الكتب الوطنية أخيرا • انظر فيه :
أ ـ رسالة المناعي الى أمير لواء : ص : 3 ـ 4 •
ب ـ رسالة المناعي الى مصطفى خزندار : ص 4 ـ 5 •
ح ـ رسالة احمد بن ابي الضياف الى المناعي في شان خطوبة ابنته : ص : 34 ـ35 •
د ـ جواب المناعي على هذه الرسالة : ص : 35 ـ 36 •
هـ ـ رسالة المناعي الى الشيخ على الرياحي : ص : 39 ـ 40 •
و ـ جواب على الرياحي للمناعي : ص : 40 •
ز ـ رسالة من انشاء المناعي في أمر اداري : ص : 80 ـ 81 •
ص 27 و 28 •

رسالتين (73) الاولى الى مصطفى خزندار والثانية الى أمير لواء العسة فرحات ، يطلب منهما خدمة . وتغلب على الرسالة الاولى صبغة التبكي والتوجع ، اذ بقي أعواما بدون عمل ، في بؤس وشقاء هو وأولاده وعياله ، وأسلوبها لا يختلف كثيرا عن أسلوب رسالته الى أحمد بـــاي .

لكن أهم هذه الرسائل هي الرسالة التي وجهها الى أحمد بن أبي الضياف في شأن خطوبة ابنته يوكله فيها لينوب عنه في عقد قرانها، اذ تربيت في حجر خالهـا .

وهذه الرسالـة تفيـدنا عن علاقـة الكاتب بصهـره قبل تأزمها وتعكرها ، خاصة وأنها ملآى بعبارات التقدير والاجلال والتعظيم ، ويقر له فيها بالفضل والكرم والاحسان :

« والحمد لله الذى ذخركم لها كنزا ، ووهب لها من جنابكم شرفا وعزا ، وحيث قرنتم رأيي برأيكم ، وضربتم لى بحظ من ولايتكـم عليها وولائكم ، وان كنت لا أزن نفسي بالسنجة التي بها وزنتني ، ولا أزنها بالفضل الذى زينتني ، فذلك منكم محض فضل علي ونعمة، وجوابي عنه طاعة وخدمة » (74) .

والرسالة الرابعة وجهها الى الشيخ علي الرياحي يستدعيه فيها الى مجلس انس :

---

(73) تعرضنا الى هـاتين الرسالتـين في ترجمـة حيـاة المنـاعي ، انظـر اعـلاه ص 27 و 28 .

(74) سنتعرض الى هاته الرسالة في الفصل الذى نعقده لاحمد بن ابي الضياف . انظر المقدمه أسفله : ص : 49 ـــ 50 .

« حيث جعل ما يطرب الارواح ، ويجلب الافراح ، من مغنين ذكى عند النظراء ذكرهم ، وهالة أخوان [سطع] بدرهم ، وكأس انس آنست مديرها ، وزهرة فكاهة اليك شميمها وعبيرها ، منزهة عن المكرات النسوانية وتوابعها » .

أما الرسالة الاخيرة فهى من انشائه فى أمر ادارى لاحمد بـاى وتطلعنا على اسلوبه النثرى الادارى عندما كان كاتبا بديوان الانشاء .

والرسالة الادبية التى بين أيدينا والتى وجهها الى البـاى ، هى رسالة تدخل فى باب فن الرسائل التى يتفنن فيها أصحابها فى الاساليب الانشائية مظهرين ابداعهم وبراعتهم .

يعرف صاحب صبح الاعشى (75) هذا النوع بقوله :

« المراد فيها ، أمور يرتبها الكاتب من حكاية حال من عدو أو صيد ، أو مدح وتقريض ، أو مفاخرة بين شيئين ، أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى . وسميت رسائل من حيث ان الاديب المنشىء لها ربما كتب بها الى غيره ، مخبرا فيها بصورة الحال ، مفتتحة بما تفتتح به المكاتبات ، ثم توسع فيها فافتتحت بالخطب وغيرها » .

ورسالة المثاعى من هذا النوع ، كتبها لحكاية حاله ، ووجهها

---

(75) « **صبح الاعشى في صناعة الانشا** » • لابى العباس احمد بن على القلقشندى • ط • وزارة الثقافة والارشاد القومى المصرية : د • ت : ج 14 ، ص : 138 •

للمشير الاول ، حاكم تونس ، أحمد باى ، يمدحه فيها ، ويشكو من أعدائه وحساده هاجيا اياهم ، كاشفا عن أمرهم . ولها غايتان :

الغاية الاولى هى التقرب من باى تونس ، ومدحه والتمسح على أعتابه لطلب خدمة يرتزق منها وليتصفه الباى من أعدائه .

والغاية الثانية ، التعرض الى أعدائه العديدين بالهجاء والذم والشتم ، والرد على وشاياتهم المختلفة ، وتبرئة نفسه مما يصمونه به من المساوى والمثالب والمدافعة عن نفسه وعرضه •

فالرسالة هى أولا رسالة وفاء وولاء للمشير الاول ، وعلامة طاعة ، وطلب خدمة ، يصور فيها المناعى تعلقه بالباى تصويرا مؤثرا (76) ، فهو أمله الوحيد ، ورأس ماله ، وناصره على أعدائه فى هذه الفوضى السائدة فى القصر ، بين دسائس تحاك ، ومؤامرات تدبر ، ووشايات تنقل ، وأخلاق زائفة تعتمد الكذب والنفاق والتملق والمراوغة والمماطلة .

مدح المناعى الباى مدحا رصينا ، موضوعيا ، لم يفرط فيه ولم يفرط ، ووصفه بصفات الملك العاقل العادل ، البصير بالامور ، الرصين ، المتأنى فى الحكم (77) . وقد توصل المناعى لغايته ، فى الدفاع عن نفسه ، بتوخى أسلوب واقعى ناضج ، اعتمد فيه على المحسنات اللفظية والمعنوية ، واستعمل فيه الطرق البلاغية ببراعة

(76) انظر « **رسالة المناعى** » : الصفحات الاولى خاصة : ص : 85 – 86 ، 158 ، 159 •

(77) انظر ديباجة « **رسالة المناعى** » : ص : 78 – 79 •

ومرونة من سجع وجناس ، ومطابقة واقتباس ، واستشهاد بالشعر والنثر (78) . ويمكن أن نلاحظ ملاحظتين اثنتين تتعلقان بنثر المناعي :

1) انه نثر فني ذو صبغة واقعية ، لا تكلف فيه ولا تصنع ، ولا زخرفة لغوية ولا ترصيف زائف للكلمات والعبارات ، وانما هو صادر عن عاطفة حارة ، صادقة ، ويعبر عن واقع حي ، ضمنه كاتبه كلمات عامية كثيرة : (بشكير ، حصير ...) (79) ، وأدخل فيه تعابير عامية شعبية مثل (يدور مع العلة) (80) ، واستغل فيه تعابير فقهية ، والروح الجدلية السائدة في الفقه ليؤدي ما بنفسه من خواطر وأحاسيس وأفكار مثل : «وهل يرد حكم أصله الاجماع» (81) . كما انه أورد امثالا كثيرة ، وأسبغ على أسلوبه طابعا تونسيا ، جدد به اللغة ، فنراها في قلمه أداة يطوعها للتعبير عن مقاصده ومراميه وأداء ما يجول بنفسه من عواطف ومشاغل وأفكار ، ونراه يتصرف في اللغة ، ويبدع فيها ، ويبلغ الذروة في التعبير الفني في بعض المقاطع (82) ، بعد أن كادت العربية تجمد في عهد الاتراك .

2) والملاحظة الثانية ترجع الى طريقته في الهجاء ، وهي طريقة تعتمد خاصة على التهكم والسخرية وتهويل صفات المهجو ، وهو هجاء لاذع ، يستهدف ضحيته حسيا ومعنويا ، حتى يبلغ أقصاه ، ويبلغ

(78) هذه المحسنات اللفظية والمعنوية تتخلل كامل الرسالة .
(79) انظر « **رسالة المناعي** » : ص 144 ، 151 .
(80) نفس المرجع : ص : 96 .
(81) نفس المرجع : ص : 98 .
(82) نفس المرجع : ص : 132 . مثلا : والقدر يضحك من ورائي .

القمة . ويتجلى فى هذا الهجاء سخط المناعى على الطبقة الحاكمة ، المتصرفة فى الاموال والعباد . وقد تفنن المناعى فى الهجاء ، وتوخى الاسلوب الكاريكاتورى واجتهد فى الادلاء بحججه خاصة فى بيان أمراضه ، ووصفها وصفا قيما .

ولهذه الرسالة قيمة كبيرة ، فهى تصور لنا تصويرا أدبيا دقيقا العلاقات بين شخصيات ديوان الانشاء ، وتصف لنا الاجواء النفسانية والاجتماعية التى كانت تسود البلاط ، فى النصف الاول من القرن التاسع عشر بتونس ، زيادة على ما فيها من اشارات الى بعض الاحداث التونسية .

وهى رسالة طريفة وجريئة ، تتمثل طرافتها وجرأتها فى أن محررها تهجم فيها على شخصيات بارزة فى عصره ، لها مكانتها وجاهها ، ومركزها الموطد ، فهجاها الهجاء المر ، وأحيانا المقذع ، وتصدى لها بالتقريع والتشنيع ، ونذكر على سبيل المثال أحمد بن أبى الضياف ، ومحمود ابن عياد ، وأباه محمد ابن عياد ، والباجى المسعودى وغيرهم . والرسالة تمثل من جهة أخرى ، مرحلة من مراحل النثر التونسى فى أواسط القرن التاسع عشر بعد أن كاد يبلغ طور الجمود والتحجر من جراء حكم الاتراك .

وهى أخيرا قطعة نثرية تمثل مدى ما وصل اليه النثر الفنى فى تونس من جودة وحذق وتفنن وتعبير واقعى حى ، وهى بالتالى ومضة من ومضات الفكر التونسى وعلامة من العلامات الدالة فى تاريخ النثر بتونس .

وللبــاحث أن يتســاءل متى ألفت هذه الرسالــة ؟ لكننا لا نعلــم بالضبط متى كتبت ، كما اننا لا نجد تاريخ نسخها الا فى نسخــة «ب» وهو سنة 1307 هـ .

والرسالة موجهة الى أحمــد باى المتوفى سنــة 1855 ، وقد كتبها فى آخر حياته ، لما عطل عن العمل وأطرد من ديوان الانشاء .

وفى الرسالة اشارة الى مرض الباى (83) ، لكن لا نعلم اهل هــو مرض الوباء ، (الريح الاصفر أو الكوليرة) ، الذى ظهر بتونس فى شهر ديسمبر 1849 (84) ، فتكون الرسالة مكتوبة بعد هذا التاريخ ، بينه وبين عام 1855 سنة وفاة الباى ، أو هو الفــالج الذى أصــاب الباى فى 31 جويلية 1852 (85) فتكون الرسالة مكتوبة بين سنة 1852 و 1855 سنة وفاة الباى .

---

83) انظر « **رسالة المناعى** » : ص : 135 .
84) « **الاتحــاف** » : ج 4 ، 128 ـ 136 .
85) نفس المرجع : ص : 140 .

أعداء المناعي

أعلمنا المناعي في رسالته أن أعداءه كثيرون وأن عددهم لا يحصى ولا ينضبط بحد (86) ، وجلهم ينتسب الى سلك الكتاب والقضاة والعدول (87) ، مما جعله يعيش بعد أن عزل من الوظائف كالمضطهد ، المرهق . غير أن المناعي لم يذكر كل هؤلاء الاعداء ولم يسم الا البعض . فقد أشار الى أحمد بن أبي الضياف ، وذكر محمد الاصرم باش كاتب ، وهجا سبع شخصيات سماهم وهم :

- أحمد العثماني (م. 1854)
- حمودة بوسن (م. 1869)
- محمد بن سعيد (؟)
- أحمد الغرياني (؟)
- حسن بوكاف (م. 1842)
- الباجي المسعودي (م. 1880)
- محمود ابن عياد (م. 1880) .

86) انظر « رسالة المناعي » : ص : 95 .
87) نفس المرجع : ص : 107 .

ومن بين هذه الشخصيات ، شخصيتان لم نعثر لهما على ترجمة وهما محمد بن سعيد ، وأحمد الغرياني ، وقد تفنن المناعي خاصة في تحطيم محمد بن سعيد تحطيما قاسيا، بدون شفقة ولا رحمة (88)، وتفنن كذلك في استعمال الاساليب البلاغية ، والمحسنات اللفظية ، والوسائل الاحتجاجية قصد التشهير بمناوئيه ، والتشنيع عليهم .

واشتهرت الرسالة بأنها ضد أحمد بن أبي الضياف فقط ، لكن من التدقيق والضبط أن نقول انها ليست ضده وحده ولكن ضد كل أولئك ، وكل من شملهم القصر واختص بهم الباي من أعداء المناعي . فلننظر من هم أعداؤه وكيف سلقهم وتصدى لهم بالطعن والثلب والتعريض :

1 ــ أحمد بن أبي الضياف (م . 1874) :

اتهم المناعي أحمد بن أبي الضياف بأنه رئيس العصابة (89) التي تألبت ضده ، وسعت به ، وكانت سببا في خروجه من الخدمة ، وطرده من الديوان ، لكن المناعي لم يذكره باسمه وانما اشار اليه فقط (90) لشهرة العداوة بينهما ، ولسيرورة الحوادث التي وقعت بينهما ، فالمناعي زوج لاخت ابن أبي الضياف كما هو معلوم ، وقد جرت بينهما مكاتبات كثيرة (91) .

---

88) نفس المرجع : ص : 108 .

89) « **رسالة المناعي** » : ص 107 .

90) نفس المرجع : ص : 107 و 113 .

91) انظر في كنش رقم 17878 : ص 34 ــ 36 : رسالة من احمد بن ابي الضياف الى المناعي في شأن خطوبة حفدته للاخت ابنة المناعي وانظر نص جواب المناعي وتوكيله ابن ابي الضياف ليتولى عقد قرانها ، وقد ربيت عند خالها في داره .

وأول شيء يلفت نظرنا في هذه العلاقة هو هذه القرابة ، لكن المؤرخ لم يذكر في ترجمته للمناعي أنه زوج أخته ، ولا ما بينهما من الوقائع ، وانما ترجم له ترجمة موجزة ، مقتضبة .

واشتهرت هذه الرسالة بأنها ضد أحمد بن أبي الضياف (92) ، لانه كان الشخصية الرئيسية في تأليب الاعداء ضد المناعي ، لكنه لم يكن وحده ، وقد سلط المناعي قلمه على جماعة أخرى لا تقل عنه شأنا وقيمة وجاها .

وقد كثر الحديث عن ابن أبي الضياف في هذه الاعوام الاخيرة ، بمناسبة صدور تأليفه الضخم في تاريخ العهد الحسيني واعادة طبع تاريخه ، وصدور بعض التآليف الاخرى له (93) ، ولكن ابن أبي الضياف لم يزل في حاجة الى دراسة أعمق وأشمل تبين اتجاهاته العديدة ، وتكشف النقاب عن أسس فن التاريخ عنده ، ومدى تأثره بابن خلدون . وكذلك فان المادة التاريخية التي قدمها لم تستغل بعد الاستغلال اللازم والكافي (94) .

---

(92) انظر عنوان نسخة « أ » « جواب [...] المناعي للمشير الاول يتظلم من صهره الشيخ سي احمد بن ابي الضياف » .

(93) محمد الصالح مزالي : « **من رسائل ابن ابي الضياف** » ، تتمة « **لاتحاف اهل الزمان** » . الدار التونسية للنشر ، تونس 1969 .
ومحمد المنصف الشنوفي : « **رسالة احمد بن ابي الضياف في المرأة** » . حوليات الجامعة التونسية . العدد الخامس سنة 1968 .
وتاريخ ابن ابي الضياف : « **الاتحاف** » : صدر في ثمانية اجزاء من سنة 1963 الى 1966 . وقد اعيد نشر الجزأين الاولين منه . والثالث والرابع تحت الطبع باعدادنا ومراجعتنا .

(94) قد خصص له الدكتور احمد عبد السلام فصلا في اطروحته :
A. Abdesselem : Les historiens tunisiens des XVII, XVIII et XIX siècles Publication de l'Université de Tunis 1973.

وقد كان ابن أبى الضياف شديد الاتصال بالاسرة المالكة سابقا ، وهو كاتب سر الباى والكاتب فى ديوان الانشاء منذ عهد حسين باى (م. 1827) تحت نظر الوزير شاكير صاحب الطابع .

ثم علا شأنه خاصة فى مدة أحمد باى فوجهه سفيرا لدى الباب العالى ، واستصحبه فى رحلته الى فرنسا (95) . لكن أحمد بن أبى الضياف ، لم يتول رئاسة الكتاب ــ وهى خطة طالما تمناها ــ رغم أن أحمد باى ومحمد باى ودا ذلك (96) ، ولم يتحقق حلمه وطموحه فى عهد محمد الصادق باى (تولى الحكم من 1859 ــ 1882) أيضا فولى غيره رئاسة الكتبة اثر وفاة محمد الاصرم .

ونستنتج من ترجمة عنوان الاريب لصاحب الاتحاف أنه كان ينفس على محمد الاصرم خطته السامية ، ويغبطه على مكانته (97) ، وكان طموحا كل الطموح رغم تقريب الباى أحمد له ، وترقيته الى الرتب العالية ، واغداقه عليه المهام والنياشين واعتماده سفيرا لدى الدولة العلية ، واستصحابه اياه فى سفره لباريس .

ونحن نعلم ان الباى عزم على تقديمه لرئاسة الفتوى بالمذهب المالكى ، لما توفى ابراهيم الرياحى «لكنه آثر مصلحة قلمه السياسى» (98) ، ولم يتول الرئاسة والوزارة الا فى عهد محمد الصادق باى ،

---

(95) « **العنوان** » : ج 2 ، ص 131 .
(96) نفس المرجع .
(97) نفس المرجع .
(98) انظر فى ذلك : « **الاتحاف** » : ج 1 ، ص : 7 . ومقدمة **رسالة احمد بن ابى الضياف فى المراة** للشنوفى : حوليات الجامعة التونسية ، عدد 5 سنة 1968 . ص : 58 ــ 59 .

ولكن ليست رئاسة ديوان الانشاء ــ وهى من أهم الرتب السياسية فى عصره ــ وانما رئاسة المجلس الذى ينظر فى القضايا بين الرعايا والاجانب ، ثم تولى بعد ذلك كاهية بالمجلس الاكبر (99) .

لقد كان أحمد بن أبى الضيـــاف ذا مكانة مرموقـــة فى المجتمع ، ينظر اليه بعين الاجلال ورفع الشأن ، يتودد اليه كل الملوك الذين عايشهم ويجلونه (100) ، زد على ذلك مكانته العلمية ، فهو أول من كتب للدولة العلية بالقلم العربى ، وهو الكاتب الخاص للباى ، أى كاتب السر ، ولسانـــه الرسمى الى الرعية والعمال وملـــوك البلدان الاجنبيـــة (101) .

ولهذا كانت رسالة المناعى جريئة ، وصاحبها شجاع حين تصدى له بقلمـــه يسلقه ويسلق أصحابـــه ويبين عيـــوبه المادية والخلقيـــة والنفسانية ، ويهجوه هجاء مقذعا ، يقطر كله مرارة وحدة وحقدا ، ويصفه لنا وصفـــا كاريكاتوريا بارعا (102) : فهو أحدب ، وأعـــرج وذو قد معوج . وهذه الصفة المادية لمؤرخ البايات نجدها مذكورة عند أحد مترجميه ، وهو محمد ابن الخوجة قال فى وصفه كأنك تراه، هو : « ربع القامة مع بعض انحناء زاده فى خطاه جمالا » (103) .

(99) « **الاتحـــاف** » : ج 1 ، ص 14 .

(100) نفس المرجع .

(101) نفس المرجـــع .

(102) « **رسالة المناعى** » : ص : 107 ، 113 ، 114 ...

(103) « **الاتحـــاف** » : ج 1 ، ص 15 .

وتهجم المناعى عليه وصوره بعبارات قاسية ، ورسمه لنا فى مظهر المنافق ، والثعلب المراوغ ، والشيطان الوغد ، والسرطان الخطير ، وتصدى فى آن واحد لشيعته وأنصاره ، يحكم عليهم بأنهم شيعة فساد ، وشياطين أوغاد (104) .

بل هو يذهب فى هجائه الى أبعد من ذلك بلسانه السليط وقلمه الذرب ، ويقدمه لنا فى لوحات ارتسامية بليغة فى صورة « الكلب العقور » (105) ، وهى اشنع صورة هجا بها المؤلف ابن أبى الضياف . وهجاه كذلك هجاء دينيا فاتهمه بتهم خطيرة منها أنه ملحد ومبتدع ومتمرد (106) ، وانه كان عاقا لوالده لما كان يردده على لسانه من عبارات نكراء في شأن والده (107) .

ويهجو المناعى أيضا بيت ابن أبى الضياف ، ويعير آله بالبخل وعدم النجدة ، ولؤم الاصل ، وينكر أنه قد أدى عليه ديونا ، ويعيره هو بأنه تربى فى بيت المناعى (108) .

لكن كل هذا الهجاء لا يستطيع أن يغض فى نظرنا من قدر احمد ابن أبى الضيف ولا من شأنه ، ولا ينسينا كذلك الدور الذى قام به

---

104) « **رسالة المناعى** » : ص 107 .
105) نفس المرجع : ص 113 .
106) شك فى عقيدة ابن ابى الضياف بعد رجوعه من باريس . انظر **الاتحاف** : ج 8 ، ص : 173 . فى ترجمة حمودة بوسن « انى لما رجعت من فرنسا مع المشير ، لازمنى [حمودة بوسن] ملازمة مستكشف عن حالتى فى العقيدة » .
107) فى ترجمة ابن ابى الضياف لوالده بعض العبارات عنه : « ولم يكن فى العلم ذا بضاعة » ، « ولا ازكيه وانا ابنه » . « **الاتحاف** » : ج 8 ، 37 - 38 .
108) « **رسالة المناعى** » : ص 118 وما بعدها .

صاحب **الانحاف** فى البلاط مستشارا للملك وكاتبا خاصا له ، ولا يغض أيضا من قيمته مؤرخا وأديبا ومصلحا سياسيا .

بيد أنه يجب أن نعتبر أن من أغراض الرسالة التخطيم والتهديم اذ هى ناتجة عن حالـة نفسية يائسـة ، ذهبت بصاحبها الى حـد التشاؤم والتمرد ، وبلغت به الى اعلان السخط ، والثورة والاستياء ، خاصة وانه لاقى معارضة اقوية ، وانتقادا شديدا لسيرته ، وعداوة بلغت بأعدائه الى الدس له لاخراجه من ديوان الانشاء .

ويمكن ارجاع هذه العداوة الى سببين اثنين :

I) السبب الاول هو سبب عائلى : كان المناعى ينفر من زوجته ، أخت أحمد بن أبى الضياف ، فكانت تشكوه لاخيها ، فيشكوه هـذا بدوره الى البهـاى . وكان ابن أبى الضياف يحقد عليه من أجل ذلك ، ونحن نعلم أنه قد جرت بينهما مكاتبات كثيرة ، وتروى نوادر عديدة فى شأنهما (I09) . ونورد هنا أهم رسالة بينهما وهى رسالة مخطوطة واردة فى كثير من الكنشـات (II0) ، كتبها المناعى لصهـره قبل القطيعة وفساد العلاقة بينهما ، غير انه ليس لنا وثائق تثبت لنـا الحالة العائلية والمدنية الدقيقة للمناعى ، ونعلم من هذه الرسالة أن ابنته ربيت عند خالها ابن أبى الضياف ، كتب اليه يوكله عليها يقول:

« [...] هى ابنتكم حقيقة ، وليس عليها غيركم وصي ، ولا لها سواكم وصى ، والحمد لله الذى ادخر لها كنزا ، ووهب لها مـن

I09) انظر اعلاه التعليق عدد 53 ص 30 .
II0) « **كنش المناعى** » : ص 442 ، وكنش رقم I7878 : ص : 34 ـ 36 .

جنابكم شرفا وعزا ، وحيث قرنت رأيي برأيكم (III) ، وضربتم لي بحظ من ولايتكم عليها وولائكم ، وان كنت لا أزن نفسي بالسنجة التي بها وزنتني ، ولا أزينها بالفضل الذي زينتني ، فذلك منكم محض فضل علينا ونعمة ، وجوابي عنه لكم طاعة وخدمة ، فلتعلم سيدي أني لاختياركم تابع ، ولامركم مطيع سامع ، فأنتم أعلى رأيا ، وأجود انتقادا ، وأصوب اصدارا وايرادا ، ويصلكم التوكيل وأنتم لقبوله قاض بحق ، ومالك رق ، ومتى تأمرني بالحضور يوم العقد تجدني ممتثلا الخ ... » .

لقد كانت العلاقة طيبة فما الذي عكر صفوها ، وجعل ابن أبي الضياف يتآمر عليه ؟

اننا نجهل ذلك ، فلعل هناك سببا آخر .

2) السبب الثاني مرجعه الى سلوك المناعي وسيرته ، اذ ان المناعي كان ماجنا ، عربيدا (II2) ، متهما بالاقبال على لذاته ، وتبذير المال جزافا ، وانفاقه اسرافا (II3) ، وهو يحاول تبرير هذه التهمة فيقول : « وعلى فرض صحة ما سمعت به عداتي ، فمكروه ذلك قاصر على ذاتي ، لا يتعدى لاحد ، حتى يحنق علي ويحقد ، ويضمر لي عداوة ويعتقد » (II4) .

III) استشارة ابن ابي الضياف في خطوبة ابنته .
II2) « **مجمع الدواوين** » : ج I ، ترجمة المناعي واشعاره .
II3) « **رسالة المناعي** » : ص : 9I .
II4) نفس المرجع : ص : 92 .

ورغم ذلك فان ابن أبي الضياف لا يذكر مجون المناعي في ترجمته له الموجزة ، وانما يذكره بعد وفاته بدعوات لم نألفها كثيرا عند المؤرخ وهي : « سامحه الله ، وغفر له ، وقابله بما هو أهله » (115).

وهذا لم يثن صاحب الاتحاف عن الثناء على المناعي ، وعن الاعتراف بأنه كان مبدعا ، وكاتبا بارعا ، وذا فهم حديد ، وباع في الآداب مديد ، وغير ذلك من الاوصاف الحميدة (116) ... وزاد على ذلك أنه « ما من وجهة قام فيها الا زانها ، وأعلى شانها ، ما شئت من فصاحة وأدب وظرف ، وفهم يسبق رد الطرف ، ومحاضرة تسحر الافكار ، وتستوقف الانظار ، وتزرى بالعقار » (117) .

ونحن نعتقد ان هذه الاوصاف لم يكلها المؤرخ جزافا لصهره ، وانما هي اقرار بالواقع ، وحقيقة واضحة ، اذا اعتبرنا ما كان بينهما من العداوة والخصومة والاحقاد .

ونتساءل أخيرا هل كان المناعي محقا في هجائه اللاذع والمر لابن أبي الضياف ؟ ألم يكن مبالغا في ذلك ؟ وهل يستحق المؤرخ ، صاحب الاتحاف ، كل هذه النعوت والاوصاف الشنيعة ؟

---

(115) « **الاتحاف** » : ج 8 ، 103 .

(116) نفس المرجع : 103 .

(117) نفس المرجع : 103 .

2 ـ محمد الاصرم باش كاتب (م. 1861) :

اشتكى المناعى أيضا من هذه الشخصية ، وشخصية باش كاتب هى أبرز شخصية بعد شخصية صاحب الطابع ، اذ أنها تحتل الرتبة الثانية فى الدولة بعد رتبة صاحب الطابع (118) ٠

وباش كاتب يقوم بوظيفة رئيس الكتبة ، ومهمته الاشراف على ديوان الانشاء و « له رئاسة الكتابة ، ومحاسبة العمال ، والرأى فى كل الاحوال » (119) . وتعتبر هذه الوظيفة من أهم الوظائف السياسية قبل أن تكون من الرتب العلمية (120) .

ولشخصية محمد الاصرم نفوذ واسع فى الدولة ، ولدى المشير الاول : « استدناه الباى وقربه نجيا ، وفتح اذنه لتدبيره ، واستعان برأيه فى سائر أمور الدولة ، وكان بيده قلم جبايتها ، وحساب عمالها » (121) .

ونستنتج من هذا أن وظيفة ديوان الانشاء ، كانت تقوم على كتابة الرسائل وحساب الجباية ومداخيلها ، ومحاسبة العمال .

ورسالة المناعى تكاد تكون مركزة على بيان فساد هذا الديوان وهى تبين خاصة المكانة التى كان يحتلها محمد الاصرم (122) .

---

118) « **الصفوة** » : ج 2 ، ص : 2 ٠
119) نفس المرجع : ص : 3 ٠
120) نفس المرجع ٠
121) « **الاتحاف** » : ج 4 ، ص 13 ٠
122) « **رسالة المناعى** » : ص 139 ٠

الا أن العلاقة بين الباى وباش كاتب كانت كثيرا ما يشوبها بعض التعكر والتوتر من جراء الوشايات والسعايات .

وحسب ما رواه صاحب عنوان الاريب فان محمد الاصرم كان يعمل على تحذير الباى من الوزير مصطفى خزنه دار ومن أحمد بن أبى الضياف ، اذ كان لا يرتاح لوجود هذين الشخصين فى البلاط ، يقول صاحب العنوان (123) :

« كان للامير بطانة يصغى لآرائها ، ويعمل بمشورتها ، تعاضده على أفكاره ، وتشجعه على مقاصده ، ومن أخصها وزيره مصطفى خزنه دار ، ولسانه أحمد بن أبى الضياف ، فكان صاحب الترجمة [محمد الاصرم] يحذره من الركون اليهما » .

لكن الباى لم يستمع له ، فأبعد الاصرم نفسه من القصر ، وجعله ينفض يده من الخدمة (124) .

والنص الوارد فى العنوان مفيد جدا ، فهو يشير الى ذلك الجو الذى كان يسود البلاط من تنافس وحقد وسعاية بين المقربين الى الباى . فقد كانت هناك ــ حسب ما جاء فى العنوان ــ أحزاب واتجاهات ، وكانت هناك خاصة زمرتان : زمرة يتزعمها مصطفى خزنه دار ، واخرى يتزعمها محمد الاصرم لكنها ما لبثت ان تقوضت وانحلت لقوة الكتلة الاخرى .

---

123) « **العنوان** » : ج 2 ، 114 ــ 117 .

124) نفس المرجع .

لقد جلب محمد الاصرم لصفه المناعى ، فقربه اليه وانعم عليه بالنعم الكثيرة (125) ، وخلصه من ديون النصارى التى كانت ترهقه جدا ، وقلده وظائف عديدة ، ووهب له دارا ، واسكنه بجواره بعلوه ، كل ذلك لاغاظة الاعداء (126) ، لكن سرعان ما تنكر له الاصرم ، وأخرجه من الدار ، وعزله من الخدم ، وانتزع منه كل ما يملك ، متهما اياه بالسرقة ، والاسراف ، والتبذير (127) ، وبالتالى اختلاس أموال الاوقاف التى كانت آنذاك فى فوضى كبيرة (128) .

وعلى اثر هذا العزل ، وجد المناعى نفسه بدون مورد رزق ، قد شمتت به أعداؤه ... وأحس نفسه كالمضطهد ، المظلوم ، فكتب الى الباى يشكو من باش كاتب ، ولكن لم يهجه كما هجا الآخرين ، واحتاط فى الحديث عنه وكأنه يأمل أن يعود الى الخدمة تحت رئاسته بأمر من الباى ، فبقى محترما اياه ، معترفا بفضله ، لم يتنكر لمعروفه . ولا ننسى أن المناعى سبق أن مدحه بقصائد عديدة (129) ، كما ان كثيرا من شعراء تونس تسابقوا فى تدبيج القصائد لمدحه ، وهى مدائح لا تزال مخطوطة فى الكنشات .

---

125) « **رسالة المناعى** » : ص : 128 .

126) نفس المرجع : ص : 140 .

127) نفس المرجع : ص : 152 .

128) « **الصفوة** » : ج 2 .

129) انظر شعره : «**مجمع الدواوين** » ، ج 1 ، ص : 155 — 163 ، و « **كنش الرياحى** » ، وكنش رقم 16589 .

3 ـ احمد العثمانى بوعتور (م . 1854) :

هو من كتبة ديوان الانشاء، كان بيده دفتر بديوان المخازنية، ودفتر بديوان زواوة ، قال عنه صاحب الاتحاف انه « أتقن خدمته وان كان قاصرا فى الانشاء معترفا بقصوره، لا يأنف من السؤال » (130) . وهذا النقد لصاحب الاتحاف من شأنه أن يؤيد ما ادعاه المناعى بأنه « الجاهل الكبير » (131) زيادة على الاوصاف الاخرى التى ألصقها به ، منها « الفظ الغليظ » (132) .

4 ـ حمودة بوسن (م . 1869) :

تولى الكتابة (133) منذ عهد حسين باى فى قسم الحساب بديوان الانشاء « قلم الحسبان » وقد استكتبه قبل ذلك الوزير محمد العربى زروق (م. 1822) ثم نقل الى الكتابة بديوان الانشاء بالمحكمة ، ويفيدنا ابن أبى الضياف ، أن الباى اختص به فى غالب أوقاته ، ولازم بابه ، يكتب ما عسى أن يطرأ فى غير أوقات الخدمة . لما عنده من الميل الى طبعه ، الذى تغلب عليه ـ حسب عبارة صاحب الاتحاف ـ السذاجة الاسلامية ، وهو « بعيد عن الحضارة المسماة فى عصرنا تمدنا ، وهو سبيل ميل الباى اليه ، شديدا فى سد الذرائع ، وربما افرط حتى انه يرى هذا الزى النظامى العسكرى قريبا من الكفر ، لمحافظته على السذاجة الاسلامية » (134) .

---

(130) انظر ترجمته فى : « **الاتحاف** » : ج 8 ، 93 .
(131) « **رسالة المناعى** » : ص : 107 .
(132) نفس المرجع ص : 107 .
(133) انظر ترجمته فى « **الاتحاف** » : ج 8 ، 173 .
(134) نفس المرجع .

وان ما جاء فى الاتحاف ، فى ترجمة حمودة بوسن ، لا يناقض ما صبه المناعى عليه من سوط عذابه وجام غضبه ، وما هجاه بـه من انه المسلوب الظرف، السخيف، المتهور، القذر، العفن... (135).

ويأسف المناعى من وجود أمثاله فى ديوان الانشاء ، ويرى انهم ليسوا أهلا لهذه الوظيفة ولا لتقريب الباى اياهم ، فى حين انه بقى عاطلا ، يشكو البؤس والتعاسة والحرمان .

5 ـ حسن بوكـاف (م . 1842) :

دخل ديوان الانشـاء (136) عن طريق والـده ، وهو من أعيـان المخازنية ، وصفه ابن أبى الضياف بالقصور فى الصناعة « الا أنـه استفاد حتى صار أحسن من المتوسط فى كتابة ما يكثر دورانه » . وتفنن المناعى فى هجائه تفننا رائعا ، لا تكلف فيه ولا تصنع ، اذ هو صادر عن عاطفة صادقة ، وعن مـرارة من وجود أمثاله فى ديـوان الكتابة ، وهم يمثلون عنده الرداءة والقبح والاسفاف (137) .

وقد رسمه المناعى لنا رسما مفرطا فى التهكم والسخرية ، وقدمه لنا فى لوحة تعبيرية وصوره فى صورة « تروع الكـلاب بقبحها ، فتحرس نفسها منه بنبحها » (138) وهو « الحائز من المخازى ما هو واف كاف ، حسن بوكاف » (139) .

---

135) « **رسالة المناعى** » : ص : 107 .
136) انظر ترجمته فى « **الاتحـاف** » : ج : 8 ، 51 .
137) « **رسالة المناعى** » : ص : 109 ـ 110 .
138) نفس المرجع ص : 109 .
139) نفس المرجع ص : 110 .

وكان المناعى متيقنين أن هذا السجع قد زاد فى قوة العبارة ، ومن شأنه أن يجعل الصورة تبقى فى الذهن مرتسمة لا تمحى .

6 ـ الباجى المسعودى (1810 ـ 1880) :

لم يترجم له ابن أبى الضياف ، واكتفى بالترجمة لوالده مشيرا الى ابنـه هذا (140) . ذاكرا أنـه «أعقب أولادا هم الآن فى خدمـة الدولـة ، أكبرهم من أعيان بلغاء الكتاب ، وفرسان ميادين الآداب ، صاحب « الخلاصة النقية » (141) ، كثر الله من أمثاله » .

وقد أورد صاحب الاتحاف فى تاريخه عددا من الرسائل من انشاء الباجى ، وهو من شخصيات القرن التاسع عشر البارزة فى تونس ، فهو شاعر وأديب ومؤرخ (142) وكاتب فى ديوان الانشاء منذ عهد حسين باى ، وهو من خلان أحمد بن أبى الضياف ، كان يميل معه الى اللهو والطرب والخلاعة والمجون ، ولا يبعد أن يكون من الاباحيين أيضا أو على الاقل من الشهوانيين المفتونين بالجسد (143) ، وقـد كان يتقرب الى الامراء ، خاصة أحمد باى ، ونجد فى مديحه أحيانا تذللا وخنوعا . ويظن مقدم منتخبات المسعودى ، آن صاحبها « لم يقض جميع أوقات شبابه فى الانعكاف على طلب العلم والمواظبة على

---

(140) « **الاتحـاف** » : ج 8 ، 64 .

(141) « **الخلاصة النقية فى امراء افريقية** » . الطبعة الثانية تونس 1323 .

(142) نشر له منتخب من شعره ونثره ، انظر : « **الباجى المسعودى** » ، تقديم محسن بن حميدة ، سلسلة ادباء المغرب العربى . الشركة القومية للنشر والتوزيع ، تونس 1962 وفصل :

R. Blachère : Sur un poète chroniqueur Tunisien Al-Bàji-l-Mas'oudi p 39-44 in mélanges Ch. A. Julien PUF/1964

(143) « **الباجى المسعودى** » ص : 22 .

دروس شيوخه بجامع الزيتونة ، وانما قضى الكثير منها فى مرافقة الاصحاب ، ومجالسة الغوانى . وتناول المدام سواء أكان ذلك بالمنتزهات خارج العاصمة التونسية ، أو بالدور المعروفة لذلك بحى باب البحر بالعاصمة نفسها . ونظن أيضا أن المسعودى لم يقلع عن حياة اللهو والمجون فى كهولته ، ولقد بقى يحن اليها حتى عندما تقدمت به السن » (144) .

وهجا المناعى المسعودى أكثر من أصحابه ، لانه كان أبرزهم . وكان صديقا حميما لابن أبى الضياف (145) ، وتفنن فى هجائه وتقريعه تفننا يعتمد على بعض الاحاديث وأقوال الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ ، من شأنها أن يكون لها تأثير نفسانى على مهجوه ، وعلى القارئين ، فهجاه برداءة الاخلاق والنفس ، وثقل الروح والبدن (146) ... ولا يخفى ما فى هجائه له من تهكم لاذع ، وسخرية مرة ، خاصة وأنه يمثله بصورة الرقيب ، عدو المحبين والعشاق ، وختم هجاءه له بالدعاء عليه بأن يبعده الباى من القصر . وهى امنية طالما تمناها ، وكانها امنية الناس اجمعين .

ولكننا نحن نحترز ازاء هذا الهجاء ونتساءل عن قيمته ، ومدى صحته وصدقه ، خاصة وأن الباجى المسعودى شخصية فذة فى التاريخ التونسى ، لها مزاياها وقيمتها ، وقد اضطلعت بدور هام

144) نفس المرجع : ص : 25 ــ 26 . وانظر قصيدة للباجي : ص 62 : « سلام على اللذات » .

145) نفس المرجع : انظر : قصيدا فى رثاء احمد بن ابى الضياف ، ص 60 ــ 61 . وآخر فى رثاء حسن بوكاف : ص : 58 .

146) « رسالة المناعى » : ص : 110 ــ 111 .

فى الحياة الادبية والفكرية بتونس فى القرن الماضى ، اذ كان أديبا ، ومؤرخا ، وكاتبا هاما فى ديوان الانشاء . ونعتقد ان هجاء المناعى للباجى المسعودى ، مثل هجائه لاحمد بن أبى الضياف ، لا يستطيع أن يتعدى ــ فى نظرنا ــ الى الغض من قيمتهما ولا من قيمة أعمالهما التاريخية والادبية .

7 ــ محمود بن عياد (1810 ــ 1880) :

ومن أغراض الرسالة ، تهجمها على محمود ابن عياد (147) وهو فى أوج سلطانه ، وقمة نفوذه ، قبل أن يفر الى باريس ويتجنس هنالك بالجنسية الفرنسية وقد نهب أموال الشعب ما شاء له أن ينهب ، وأخذ من المال ما لم يأخذه أحد قبله ولا بعده .

وقد كان مأثورا لدى الباى ، وله أمان فيه « لما يرى انه صنيعته [. . .] وأخذ له مالا من الدولة لا يأخذه مثله ، وأعانه فى خصامه مع ابيه ، وقدمه على انظاره ، وقربه نجيا ، حتى انه كان يبيت عنده فى بالاصه بقمرت ليلة فى السنة [. . .] وبمقتضى ذلك صدقه من غير اعمال فكر ... » (148) .

وانحصرت فى يده جميع أنواع مصاريف الحكومة من قوت العساكر وملابسهم ، وجميع المهمات للحكومة ولذات الوالى (149) ، فعبث بها أيما عبث ، وتوكل كذلك على دار المال « وهو اذذاك المقرب

147) انظر : كتاب جان جانياج المذكور .
148) « **الاتحاف** » : ج 4 ، ص : 149 .
149) « **الصفوة** » : ج 2 ، ص 7 .

زلفى ، والنصوح الاوفى (؟) عند الباى » لكن سرعان ما توقفت دار المال لعدم وجود المال الناض بها (150) .

وتغاضى الباى عنه ، وسلم له أمر ولايات جميع العمال ووظائف جميع جبايات الاموال لشركة سرية بينه وبين مصطفي خزنه دار ، « وقدم لاقتداره، على ارضاء الوالى باحضاره، فعلا ووعدا ما يطلبه من المهمات والاموال ، وامتدت يده بزيادة المظالم على ما ترسمه الحكومة باضعاف مضاعفة [. . .] وتوصل الى كتب الاوامر بخطه سرا هو والوزير ، ويمضيها له الوالى من غير علم أحد مع تحسين الوزير لذلك عند الوالى ... » (151) . فحصل من ذلك أموالا طائلة قدرت بثمانين مليونا ، أرسلها الى فرنسا (152) .

ولم يخش المناعى بطش ابن عياد ولا خزنه دار ، وتحداهما ، وراح يصب على صنيعة الباى محمود جام تجريحه وغضبه ويتهمه بتهم عديدة : بالكفر لمخالطته النصارى قبل سفره الى فرنسا واحتمائه بالدولة الفرنسية ، وبالمؤامرة معهم على الدولة التونسية .

وقد احتال ابن عياد حتى تقرب الى الشيخ باش كاتب لانه كان يخشى جانبه ، ويحتاج اليه فى تنفيذ خططه .

---

150) « **الاتحاف** » : ج 4 ، ص : 144 .

151) « **الصفوة** » : ج 2 ، ص : 7 .

152) نفس المرجع . ومعلوم ان الباى بعث لخصامه فيها الى فرنسا المصلح خير الدين وألف الوزير حسين رسالة فى القضية سماها : « **حسم الالداد ، فى نازلة محمود ابن عياد** » . وكان الوزير حسين فى صحبة خير الدين .

وابقى لنا المناعى صورا فنية لايشك فى قيمتها الادبية ، لبعض شخصيات القرن التاسع عشر خاصة محمود ابن عياد اذ وصفه بأوصاف كثيرة ، مبثوثة فى آخر الرسالة (153) ، فهو : « أحدب ، خبير بمكائد الخراب ، ومذاهب الفساق ، وهو معدود من البهتان ، وأخ للنصارى ... » ، واتهمه المناعي بالوشاية به عند الاصرم ، فكان سببا — من جملة الاسباب — فى نكبته ، والفتنة التى ذهب ضحيتها .

وتتجلى من خلال هذا الهجاء نقمة المناعى الشديدة على بيت ابن عياد ، وسخطه خاصة على محمود وأبيه (154) .

ويمكن اعتبار هذه الصورة الهجائية وثيقة تاريخية قيمة لما كانت تلاقيه أعمال ابن عياد من سخط ونقمة وحقد دفين في القلوب .

153) انظر فى « رسالة المناعى » : ص : 130 وما بعدها .
154) « الاتحاف » : ج 4 ، ص : 31 ، 37 ، 55 ، 80 ، 116 .

وصف المخطوطات

المعتمد عليها في هذه الطبعة

يوجد من رسالة المناعى عدة نسخ فى دار الكتب الوطنية ، وهى خمس نسخ ، جمعت من مصادر مختلفة ، اثر قرار التجميع الصادر فى سبتمبر 1967 القاضى بنقل كافة المخطوطات بالجمهورية التونسية الى المكتبة الوطنية ، كما أن لبعض الخواص منها نسخا كالشيخ محمد الشاذلى النيفر . والمخطوطات الخمس هى من مصادر ثلاثة مختلفة :

1) مخطوط وارد من المكتبة الخلدونية وهو الذى اعتمدنا عليه فى تحقيق المخطوط وأشرنا اليه بحرف « أ » .

2) مخطوطان موجودان أصلا بدار الكتب الوطنية ، وأشرنا اليهما بـ : « ب » و « ت » .

3) نسختان من مكتبة المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ، اخترنا لهما من الرموز « ح 1 » و « ح 2 » .

نسخة « أ »

وهى محفوظة بدار الكتب الوطنية تحت رقم 16511 . ومختومة بختمين : ختم مكتبة الخلدونية بتاريخ 1901 حيث كان رقمها هناك

3259 ، وختم دار الكتب الوطنية . وليس بها تاريخ النسخ ولا اسم الناسخ ، وهى نسخة كاملة متضمنة فى آخر كنش ضخم لاحد التونسيين لا نعرف اسمه ، يحتوى على 487 صفحة ، والرسالة تقع من ص 429 الى ص 487 .

وهى أكمل النسخ مع نسخة ح 2 ، كما أن خطها أوضح من الخطوط الاخرى وان كانت خطوطها مختلفة ومتفاوتة جودة ووضوحا ، وان كان أيضا فى شكل كلماتها كثير من الاخطاء .

وخطوطها مغربية الا الاوراق الاربع الاخيرة فهى بخط نسخى معاصر يبدو أنها زيدت حديثا .

مجموع عدد صفحاتها 59 صفحة ، ورقعة الصفحة : 21×15،5 ، تشغل الكتابة بها 14×9 ، وعدد سطور الصفحة : 19 سطرا ، توجد فى أولها علامات على مفاصل السجع ، تنعدم فى الآخر ، وبها كلمات وعبارات مكتوبة بالحبر الاحمر .

وبهامش هذه النسخة بعض التصويبات والملاحظات ترجع بنا فى كثير من المرات الى الاصل ، مما يدل على انها منقولة من الرسالة بخط المؤلف . ولم نعثر عليها .

اما العنوان فهو : « جواب الشيخ الكاتب الاكتب ، سى حمدة المناعى للمشير الاول ، يتظلم من صهره الشيخ سى أحمد ابن أبى الضياف » .

وهو عنوان غير دقيق ولا مضبوط ، اذ أن المناعى لا يشتكى فقط من أحمد ابن أبى الضياف ، وانما يشتكى أيضا من رجال آخرين فى مثل أهميته .

وفى الصفحة الاولى من الكنش ، نجد هذا التقديم :

« يشتمل هذا المجموع على كثير من الشعر التونسى ، وعلى رسالة أبرع الكاتبين من التونسيين حمدة المناعى ، التى خاطب بها المشير أحمد باشا فى شأن نازلته مع صهره أحمد ابن أبى الضياف ».

ونجد فى هذا المجموع لمؤلف الرسالة ، علاوة على الرسالة ، ثلاث قصائد ، يمدح فيها باش كاتب (ص 53 — 56) ، ومنها قصيدة يشكو فيهـا حالـه .

ويحتوى هذا الكنش خاصة على أشعار لبعض أدباء القرن التاسع عشـر بتـونس ، منهـم بعض الشعـراء الـواردة أسمـاؤهم فـى الرسالة : محمد الاصرم « رئيس الكتبة بافريقية » مادحا المشيـر الاول ، والباجى المسعودى ، وأحمد ابن أبى الضياف خاصة فى رثاء لصديقه حسن بوكاف « لما وقف على قبره ، وكان يظن أن لا يقف عليه ، فتصعدت الزفرات ، وساعدت العبرات ... » وكذلك قصائد أخـرى لـه .

نسخـــة « ب »

وهى نسخة ناقصة فى 47 صفحة ، محفوظة بدار الكتب الوطنية تحت رقم 1207 ، وبها ختمها ، وتمتاز هذه النسخة على النسـخ

الاخرى بأن فيها تاريخ النسخ وهو سنة 1307 هـ . وليس بها اسم الناسخ .

وحجم الصفحة : 22،5×16،5 ، تشغل الكتابة بها : 15،5×10 ، وعدد السطور بالصفحة : 11 سطرا .

لكن هذه النسخة رديئة جدا ، تكثر فيها الاخطاء النحوية ، والاغلاط في الرسم ، خطها فاسد مما يدل على جهل كبير بأبسط قواعد العربية ، ونحن لم نعتمدها كثيرا ، خاصة وأن عددا غير قليل من العبارات والالفاظ والصفحات تسقط أثنائها. والعنوان هو: «رسالة الشيخ المناعي للمشير الاول أحمد باشا رحمهم الله وجميع المسلمين »

نسخة « ت »

هذه النسخة في كراسين ، كل كراس في عشر ورقات ، لم تجلد ، وهي تحت رقم 1759 ، وليس بها ختم دار الكتب الوطنية ، كانت مفقودة ، وعثر عليها أخيرا ، بعدما فرغت من مقارنة النسخ الاخرى ، فألحقتها وقارنتها بها ، وفي أولها : « هذه رسالة من انشاء المنعم الابرع الشيخ حمدة المناعي ، تضمنت شكوى للمقدس المشير الاول أحمد باي » وهو عنوان أعم من العناوين الاخرى .

ومجموع صفحاتها : 36 صفحة ، شكل الصفحة : 25 × 18 ، وتشغل الكتابة بها : 18×12 .

ليس بها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ ، والخط مغربي ، بها نقص في الآخر ، وكذلك سقوط لعبارات وكلمات كثيرة .

نسختا المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب

1 ـ نسخة (ح 1) :

رقمها بدار الكتب الوطنية 18680 ، ورقمها القديم ضمن مخطوطات المرحوم ح. ح. عبد الوهاب : 780 .

مختومة بختمين : ختم مكتبة ح. ح. ع. ، وختم دار الكتب الوطنية بتونس ، وهى نسخة يبدو انها قديمة ، لقدم خطها وورقها ، ولكنها نسخة غير كاملة ، بها 39 صفحة فقط ، والباقى ضائع ، وحصل بتجليدها تشويش فى ترتيب الاوراق .

حجم الصفحة 21،5 × 15،5 ، وتشغل الكتابة بها : 18 × 11،5، وعدد سطور الصفحة : 16 سطرا .

والعنوان ، بقلم الرصاص ، يبدو أنه بخط المرحوم ح. ح. عبد الوهاب : « رسالة الشيخ المناعى باش كاتب الدولة التونسية ، يتشكى فيها الى أحمد باى الاول ، من بعض رجال الدولة المعاصرين»، ولئن كان بالعنوان دقة وضبط من حيث موضوع الرسالة ، فاننا نعتقد ان المرحوم عبد الوهاب قد اخطأ فى ضبط وظيفة المناعى ، فهو لم يكن « باش كاتب » وبقى كاتبا من جملة الكتاب برئاسة محمد الاصرم الى ان أطرد من ديوان الانشاء ، وافتكت منه جميع أوامر الوظائف .

2) ـ نسخة « ح 2 » :

وهى أكمل نسخة الى جانب نسخة « أ » . ورقمها 18304 ، وبها

ختمان مثل « ح I » ، ختم مكتبة ح.ح.ع. ، وختم دار الكتب الوطنية ، ورقم تسجيلها 6371 ، ورقمها فى مكتبة المرحوم عبد الوهاب : 404 .

وهى مجلدة فى 24 ورقة و 47 صفحة ، حجم الصفحة : 23،3 × 17 ، تشغل الكتابة بها : 16،5 × 11 ، وبالصفحة 20 سطرا .

والخط مغربى ، تصعب أحيانا قراءته ، ولها عنوانان : عنوان بالصفحة الاولى : « رسالة أدبية من انشاء الشيخ حمدة المناعى ، رئيس كتبة دواوين الحكومة التونسية ، فى شكواه من الاضداد والحساد ، مرسلة الى الامير أحمد باى الاول » ، ويوجد فى هذا العنوان الخطأ الذى لاحظناه فى عنوان ح 1 أى ان المناعى لم يتول رئاسة الكتابة .

والعنوان الثانى : « هذه رسالة من انشاء الابرع المنعم الشيخ حمدة المناعى ، تضمنت شكواه للمقدس المشير الاول » .

وكانت هذه النسخة بخط عزوز العتابى أهداها الى صديقه حسن حسنى عبد الوهاب بعد أن صدرها بهذه الابيات :

قد انصرمت أيام الاصرم والباجى وكل لعفو الله منتظر راجى

ونحن بعصر ربما خلت يومه سحابا كثيفا عم فى الحالك الداجى

قد انتزعت منا المقاليد كلها وحورب دين الحق بالباطل الساجى

وصارت لفتيان اليهود زعامة وقل امرؤ من شر مكرهم ناجى

فرحماك ربى للشريعة واهدنا أجرنا من الفجار والمارق الهاجى

وجد بالرضى عنى وعن كل مؤمن وعن ناسخ بالفجر قد بت أداجى

المصـــادر والمراجـــع

نصنف المصادر والمراجع فى قسمين ، قسم خاص بالمخطوطات اذ ان كثيرا مـــن مصادر دراسة القرن التاسع عشر بتونس لا تزال مخطوطة من تآليف تاريخية وأدبية وغيرها ، والقسم الثانى خاص بالمصادر والمراجع المطبوعة ٠

أ ـ المخطـوطـات :

1) **كنش المناعى :** يبدو انه كنش لمؤلف الرسالة جمع فيه بعض أشعاره ورسائله ، وهو محفوظ بالمكتبة الوطنية تحت رقم 589٠16 ، ونجد فى الصفحات الاولى مكتوبا أن « صاحب هذا الكنش هو الذى تزوج بابنة الشيخ المناعى وابنة أخت الشيخ ابن أبى الضياف » ٠

ويبدو أن هذا المجموع مكتوب بخط المناعى ، اذ جمع فيه زيادة على شعره ونثره بعض المنتخبات الادبية ، الشرقيـــة والتونسيـــة ، وبدأه بأربع قصائد له (ص 1 ـ 7) ، ونجد فى ص 440 رسالة من احمد بن ابى الضياف « كاتب الارض، من لدن ابن خطيب الى يوم العرض ، الامير لواء ٠٠ » الى المناعى فى موضوع خطبة ابنته ، كما اننا نقرأ فى ص 442 ، نص جواب المناعى على الرسالة ٠

2) **كنش ، رقم 17878** ، مجموع به عدة مراسلات للمناعى وبيرم الرابع وابن أبى الضياف والباجى المسعودى وحمودة بن عبد العزيز وغيرهم • وهو كنش له قيمة كبيرة يحتوى على وثائق تاريخية وأدبيه عديدة • وبه مراسلات للمناعى ص : 3 ، 4 ، 35 ، 39 ، 80 • ونص رسالة ابن أبى الضياف الى المناعى : ص : 34 •

3) **محمد بن عثمان السنوسى : مجمع الدواوين التونسية** ، يوجد جزآن منه بدار الكتب الوطنية ، تحت رقم 16٠628 وجزآن آخران تحت رقمى 16632 و 16633 • ويهمنا منه الجزء الاول ، وبه ترجمة المناعى ، ومجموعة أشعاره من ص : 154 الى 163 •

4) **كنش لاحد التونسيين** ، تحت رقم 16511 ، وهو الذى يتضمن رسالة المناعى فى آخره ، وقد سبق أن تحدثنا عنه •

5) **كنش الرياحى** ، تحت رقم 18909 ، به أشعار للمناعى ص 140 ـ 148 •

6) **رسالة المناعى (الاب) فى الطاعون : تحت رقم 11856** .

ب ـ المطبوعات :

1) **أحمد ابن أبى الضياف : « اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك** تونس وعهد الامان » تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والاخبار بتونس فى ثمانية أجزاء •

الجزء الاول والثانى والثالث والرابع : 1963 •

الجزآن الخامس والسادس : 1964 .

والسابع : 1965 ، والثامن : 1966 .

واعتمدنا خاصة على الجزء الرابع والجزأيـن الاخيرين فى تراجم « الاعيان من العلماء والوزراء » ولا نرى هذا الكتاب محققا التحقيق العلمى الكامل ، اذ تنقصه الفهارس ، ويصعب على الباحث العمـل والافادة الكاملة منه لعدم وجود هذه الفهارس الضرورية لكتاب ضخم كاتحاف أهل الزمان وقد أعيد طبعه وصدر الجزء الاول سنة 1976 والثانى سنة 1977 . ونحن الآن بصدد مراجعة بقية الاجزاء تقديمـا وتعليقا . وقد انجزنا الثالث والرابع ، وهما تحت الطبع .

وقد استفدنا كثيـرا من الجزأين السـابع والثـامن فى تحقيـق الرسالة ، والكشف عن الاسماء المذكورة فيها .

2) **محمد بيرم الخامس** : « صفـوة الاعتبـار بمستودع الامصـار والاقطار » ، **الطبعة الاولى** ، مصر 1302 ، الجزء الثانى « **أفدنا** خاصة من الفصول المتعلقة بالوظائف السياسيـة والعسكريـة والعلميـة ، وولاية أحمد باشا وأعماله فى القطر ، وبيان ما صنعه الوزير مصطفى خزنه دار ومحمود ابن عياد من تحميل القطر ما لا يطيق ، وذهاب ابن عياد الى فرنسا وأخذه الحماية منها ، وبيان مآثر أحمد باى .

3) **محمد النيفر** : « عنوان الاريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب » . جزءان ، تونس 1351 ، **اعتمدنا على الجزء الثانى** وبـه معلومات مفيدة وهامة عن حياة ابن أبى الضياف والاصرم والباجـى المسعـودى .

4) **محمد مخلوف :** « شجرة النور الزكية » · الجزء الاول، القاهرة 1349/1930 ، به ترجمات مقتضبة لبعض الرجال المذكورين في الرسالة .

5) **محمد الباجي المسعودي :**

ـ « الخلاصة النقية في أمراء افريقية » ، تونس 1323 · الطبعة الثانية . وهو مذيل بملحق :

ـ «عقد الفرائد في تذييل الخلاصة وفوائد الرائد». طبعة أولى لابن المؤلف . تونس 1323 .

6) **حسن حسني عبد الوهاب :**

أ ـ « المنتخبات التونسية للناشئة المدرسية » ، تونس 1336 .

ب ـ «خلاصة تاريخ تونس» ، تونس 1336 . وقد أعيد طبع هذين التأليفين أخيرا .

7) **جان جانياج :** *Jean Ganiage* ; Les origines du Protectorat Français en Tunisie (1861 - 1881) - PUF. Paris 1959. Publication de l'Institut des Hautes Etudes de Tunis.

وتهمنا منه خاصة الفصول الاولى في حالة المملكة حوالى سنة 1860 ، واسباب الازمة الاقتصادية .

8) **أحمد عبد السلام :** *Ahmed Abdesselem* ; Les Historiens Tunisiens des XVII, XVIII et XIXe siècles. Publication de l'Université de Tunis. 1973.

9) **دائرة المعارف الاسلامية :** الطبعتان الاولى والثانية الفرنسيتان ورمزنا اليهما بـ EI 2, EI 1.

10) **المنصف الشنوفي :** «رسالة أحمد ابن أبى الضياف فى المرأة»، فصل صدر فى حوليات الجامعة التونسية ، العدد الخامس سنة 1968 ، ص : 49 ــ 118 ، يحتوى على تحقيق مخطوطة الرسالة المذكورة ، ومقدمة فى آثار ابن أبى الضياف .

11) **محسن بن حميدة :** «الباجى المسعودى» : س . أدباء المغرب العربى . الشركة القومية للنشر والتوزيع ، تونس 1962 . ويحتوى هذا الكتاب على مقدمة ومنتخبات شعرية ونثرية للباجى المسعودى .

12)
R. Blachère ; Sur un poète et Chroniqueur Tunisien à la fin du XIXe siècle : Al Baji-l-Masoudi, p. 39-44. (dans Mélanges Ch. A. Julien). PUF. 1964.

13) **جان مالون :**

Jean Mallon : l'Influence Française dans la Régence de Tunis avant l'Etablissement du Protectorat. Paris 1931.

14) **محمد الصالح مزالى :**

1 ــ «من رسائل ابن أبى الضياف» ، تتمة لاتحاف أهل الزمان . الدار التونسية للنشر . تونس 1969 .

ب ـ «أحوال تونس قبيل الاحتلال من خلال رسائل كونتي لخير الدين» . الدار التونسية للنشر ، تونس 1969 .

ج ـ «الوراثة على العرش الحسيني» . نفس الدار ونفس التاريخ .

15) **المختار سليمان** : «المناعي ورسالته» . فصل صدر في مجلة الفكر . السنة السادسة ، العدد السابع ، أفريل 1961 . نشر في **بريد القراء** ص 91 ـ 93 . يتضمن تعريفا موجزا بالمناعي ورسالته .

16) **محمد ابن الخوجة** : «الشيخ محمد بن سليمان المناعي وابنه الشيخ محمد» . فصل بمجلة « شمس الاسلام » . **الجزء** 7 و 8. المجلد الاول . سنة 1356 .

17) **الحبيب ابن الخوجة** : فصلان

أ ـ «معاصرو المناعي في نظره» مجلة اللغات ، عدد 5 ، المجلد الاول ، السنة الاولى ، جانفي 1962 .

ب ـ «المناعي ورسالته» نفس المجلة ، العدد 6 ، المجلد الاول ، السنة الاولى ، فيفري 1962 .

جواب الشيخ الكاتب الأكتب

سي حمدة المناعي

للمشير الأول أحمد باي

يتظلم من صهره

سي أحمد ابن أبي الضياف

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

المقام الذي يبدي الفضل ويعيده ، ويسوغ الطول ويفيده ، ويحق الحق ويشيده ، ويزيح الباطل ويبيده ، ولا ينفق من القول والعمل عنده (1) الا ما ظهر صدقه وبان تسديده (2) ، مقام من يصرخ وينجد ، وينتهم (3) فى الفضل وينجد (4) ، ويسعف ويسعد ، ويبرق فى سبيل الحق ويرعد ، فيأخذ الباطل من عزماته الماضية المقيم المقعد ، ذى المفاخر التى لا تحصى ، المثبتة فى كتاب الفخر نصا ، فمكارمه غمرت (5) الادنى والاقصى ، وعزائمه تروض من صعاب الأيام ما استعصى ، وبدور سعده لا تخاف بفضل الله (6)

1) ساقطة من ب و ح 1 ، مثبتة فى غيرهما •
2) فى ب وح 1 وت : سديدة •
3) فى ب وح 1 وت : ويتمم •
4) العبارة ساقطة من ح 2 •
5) فى ب : عمت •
6) فى ب وت : الله تعالى ، وكذا بعد كل الله • ولعلها من زيادة الخطاطين •

نقصا ، شمس الملــك وبدره ، عين الزمــان وصدره ،
خير ملك ملئت منه كف ، وشمخ بخدمته أنف ، مالــك
الظواهر بالرهبة ، والقلوب بالمحبة ، وماذا أقول فيه ،
والذى ملأ الكون يكفيه ، ومن رام حصر معاليه ، فقــد
شد حقائب الرحال ، الى كل محال ، ومن للعبــارات أن
[2] تدرك شأو فضل تجاوز العادة، / فخرق حجابها ، ورفع
عــن طور العقــول فتخطى حسابهــا ، صاحب العــزم
الامضى ، والسعي الارضى ، والسياسة التى أفــرت
من الدهر العيون (7) المرضى ، سيف الحق المنتضى ،
المحفوظ بسر السور والآى ، مولانا ، ونعمة الله التى
أولانا ، وعصمة ديننا ودنيانا ، سيدنــا أحمــد باشا
بــاى (8) أبقاه الله متصلــة بالسعد أسبابه ، غــاصا
بوفود اللطف والعافية بابه ، محروسا من غير الايــام
جنابه ، مسدولا على ذاته الكريمة ستر الله وحجابه ،
مصروفــا عنه من صروف القــدر مــا يعجز عــن رده

7) ساقطة من ح 2 .
8) هو المشير الاول ، وعاشر البايات الحسينيين ، حكم تونس من 1837 الى 1855 .

بوابه ، مشتملة على مكارم الدين والدنيا (9) أثوابه ، مسطرا فى صحف الحمد فخره وثوابه ، معملا فى سبيل الحق حزمه وعزمه وركابه ، تفرق لسطوته أعــداؤه ، وترتاح لنعمته أحبابه ، ولازال للنوازل يفقه أغراضها ، ويبين صحتها وأمراضها ، ويختبر (10) بميزان ذكائه معانيها وألفاظها ، فيعطيها بعقلــه الرصين حقوقهــا ، وينحى على غراس السعايات فيتبع عروقها ، حتى يظهر الحق ويعليه ، وينسخ ما يلقى الشيطان ويمليه (11) ، فيروق وجه اليقين لمجتليه ، ويفوز بحسن العقبى حزبه ومواليه ، آمين (12) .

أما بعد ، فان العبد يحييكم (13) ، تحية القدوم ، على السيد المخدوم ، بل تحية العبودية الثابتــة الرسم ، ويقبل تلك الراحــة بالروح قبل الجسم ، هــذا وكتب

---

9) فى ب وح 1 وت : الدنيا والدين .
10) فى ب : ويتخير .
11) فى ب وح 1 وت : ما يملى الشيطان ويحليه .
12) ساقطة من ب وح 1 وت ، ولعلها من زيادة الخطاطين .
13) فى ب و ح 1 وت : يحيى .

[3] الله لكم عافيــة مديدة الظــلال ، / وصحــة ضافيــة السربال ، ووقاية لا تطرق الخطوب حماها ، وعصمــة لا تغير الحوادث اسمها ولا مسماها ، وعناية واضحــة الغرر ، وسعادة يساعدها تصريف (14) القدر ، فان عبدكم الذى تأبد لكم بالحق رقه ، فلا يجوز بيعــه ولا عتقه ، جرى عليه من المحــن ، ونتائج الاحــن ، ما لــم تنسج (15) الازمان (15 مكرر) على منوالها، ولا أتت الايام الحبالى بمثل أجنة أهوالها (16) ، فمــن أمراض أساءت بالنجاة ظنى ، وكادت تصرف وجه الافاقــة عنى ، ولا أظنهــا بلغت من أحــد مبلغهــا منى ، فانهــا تنــوعت ضروبا ، وتجمعت شعوبا ، فأثارت فى القوى حروبا ، فــالحمى أوسعتنى مــرضا ، حتى صار الجسم عرضا ، وسهام المنية غــرضا ، وأقسمت لا تبغى بى عــوضا ، والبواسير (17) ، ألقت عصاهــا واستقربهــا المسير ،

14) فى ح 2 : تصرف ، وت : تصاريف .
15) فى ح 2 : تنسخ ، وت : تسمح .
15 مكرر) جمع نادر لزمان ويجمع ايضا على ازمنة وازمن .
16) العبارة ساقطة من ح 2 .
17) ج باسور ، قال الجوهرى : هى علة تحدث فى المقعدة وفى داخل الانف ، يقال : بسرت الدمل اذا عصرته قبل ان يتقيح (لسان) .

وماذا عسى أن يفصح عن غاياتها التفسير . ومـرض الطير (18) ، وانه لـداء خطـير (19) ، سرى وتحكـم ، وأسعى فى بقية هاته (20) البنية الضعيفة وألحم ، حتى امتزج بالمزاج ، وقد ألهى الفالج عن العلاج (21) ، الى غـير ذلك مـن الامراض التى لا يصدر منهـا وارد الا لتكدير ورد ، ولا يعزل منها وال الا بولى عهـد ، حتى أيست من عسى وعل ، وألفت بلاء لعقد الصبر حـل ، وأذاب الجلد ، ولو أنى (22) جلد ، وفطر القلب والكبد ، وقد / كنت لا أرجو انقشاع غيومها ، ولا أحسبنى (23) [4] أنتشط من عقلة رجوم همومها ، لولا ألطاف مـن الله خفى ادراكها عن الحواس ، وفرج بعد الشدة أتى (24) على خلاف القياس ، فسكن ما كان هفا ، وداوى وشفى ،

18) لم أعثر على معنى هذا المرض ، ولعله مرض الدجاج اى بوبرك ، وهـو مـرض مقعـد .
19) فى ت : كبير خطير .
20) ساقطة من ح 1 .
21) فى أ : العلاج عن العلاج ، وب : الفالج عن العلاج ، وح 1 : عن المعالج العلاج ، وت : العالج عن العلاج ، وقد صححناها حسب ب وهو اقرب.
22) فى ح 2 : أننى .
23) فى ب وح 1 : ولا احسب ان ، وت : ولا احسب انى .
24) ساقطة من ب وح 1 .

بعـــد أن كنت على شفا (25) ، ولله الحمد الذى جعلهـــا عظة وتذكيرا، ولم يبق الآن منها (26) الا يسيرا، وكثيرا ما رأينا الخطوب جلت ، ثم تجلت ، وتوالت ، ثم ولت ، والصبر ضمين الظفر ، ولا ييأس من روح الله الا من كفر .

وأما البـــلاء الذى لا يـــداوى جرحـــه آس ، ولا يسد ثلمـــه تناس ، هو مـــا شاع على ألسنة الناس ، وجرى منهم مجرى الانفاس (27) ، بأن الخير لا يثمر له عندى غراس ، وودى سريع الاستحالـــة (28) والانعكـــاس ، وانى أخسر مـــن سالم الخـــاسر (29) ، بالطبع القاصر ، بالنص والقياس ، فضربـــوا دون رشدى بسور (30) مـــن الياس ، واستوحش لى منهم جانب (31) الايناس ،

---

25) العبارة ساقطة من ح 1 .
26) فى ب و ح 1 و ح 2 : منها الآن .
27) فى ب : القياس .
28) فى ب وح 1 وت : الاحالـــة .
29) كذا فى كل النسخ ، والظاهر انه مثل شعبى .
30) فى ب وح 1 وت : سورا .
31) اثبتناها كما فى ت ، وفى أ وب وح 1 وح 2 . جناب .

ورأونى سامريا (32) يتقى منى المساس ، مستندين فى ذلك كله ، لفعل المجمع على عقله ونبله ، وطهارة بيته وزكاء أصله ، شهاب المجد الثاقب ، وفخر الدولة العظيم المناقب ، الشيخ سيدى محمد الاصرم باش كاتب (33) ، أبقاه الله عزيز الجناب عميم المواهب ، كريم الانحاء والمذاهب ، وتكفل له بنيل المطالب ، وبلوغ / المآرب ، فانهم رأوه لم يدخر عنى تقريبا تقف [5] أقاربه دون (34) مداه ، وعطاء تشهد به محافل الكرم ومنتداه ، وما لبث ، حتى نقض العهد ونكث ، وتنكر (35) معروفه ورث ، وافعال العقلاء تصان عن العبث ، اذ الناس وان توصلوا الى معرفة الظواهر فالبواطن عنهم محجوبة ، والخفيات الى علم الله لا الى غيره منسوبة ، وله فى كل شىء أحكام مكتوبة ،

---

32) نسبة الى سامرة، قبيلة من قبائل بنى اسرائيل، وهم قوم يخالفونهم فى بعض دينهم • وهم يعبدون العجل الذى سمع له خوار « لسان » •

33) م 1861 ـ وهو رئيس ديوان الانشاء • انظر ترجمته : اتحاف ج 8 ، 115 ـ 117 عنوان ج 2، 114 ـ 117، المنتخبات التونسية 159 ـ 162 •

34) ساقطة من ح 1 ومكانها فراغ •

35) فى ح 1 وت : وسكن •

وبأى لسان ، أم بأى بيان ، أرد ما سارت به الركبان ، وامتلأت بحديثه الخفقان ،

قد قيل ما قيل ان صدقا وان كذبا
فما اعتذارك من قول اذا قيلا (36)

فيا له من هم ممض ، وأسف للمضاجع مقض ، ومن ألحاظ [الناظرين] مغض (37) ضاقت بسببه على الارض ، لانه يمس العرض ، لا أرضى نسبته لى ولو على سبيل الفرض ، والى الله المشتكى يوم العرض ، فانه نال منى منالا لم أبتذله للنوائب وان جلت وقعا ، ولم يؤمله طرق المصائب وان عظمت فجعا ، وقد زادنى فى الجزع ، ومنع القلوب أن تقر والعيون أن تهجع ، وترك الافكار تأخذنى وتدع ، توهم أن ينشأ عن هذا الخطب الذى فجع ، ما هو أعظم من المصاب أجمع ، وذلك

36) من البسيط ـ العقد الفريد ج 2 ، 268 • صدر البيت .
قد قيل ذلك ان حقا وان كذبا
وهو من الامثال • وقيل ان قائله النعمان بن المنذر (الوسيلة الادبية ص 263) •

37) فى أ : من الحظ مغض ، واصلحنا حسب خ 1 : ومن الحاظ الناظرين مغض ، وفى ت : محض بغض •

الخرق الذى / لا يرقع، والمصيبة التى غلتها لا تنفع (38)، [6] وهـو تغيير (39) خاطركم الشريف ، على هـذا العبـد اللهيف ، الملتجى الى جنابكم المنيف ، المستظل بظله (40) الوريف ، بتواتر هاته (41) الاراجيف ، التى لا تخلو عن تصحيف ، فليس منها الا مهمـل أو ضعيف ، وكيف لا أشفق ، ومن ذا الذى مـن نور عينيه ينفـق ، اذ أنتم العمدة التى سلمت لى الايام فيها، وقالت حسبك آمالك ومـا يكفيهـا ، فوجـودكم أدامـه الله رأس مالنـا ، وسعاداتكم (42) غاية آمالنا ، وخدمتكم حلتنا التى بها نتجمل ، ورواقنا الذى به نتظلل ، ورضاكم عدتنا التى بها نقول ونفعل، فتحصيله مدار أمرنا، واقتناؤه أنفس ذخرنا، اذ مرضاة السلطان، لا تغلو بشىء من الاثمان، فمن نالها سعد جده ، ووری زنده ، ونفذ حده ، وزاد

38) فيها اختلاف حسب النسخ : فى ب و ح 1 : لا تدفع ، وح 2 : غلبتهـا لا تنفع ، وت : علتها لا تدفع ٠

39) فى ب وح 1 وت : تغير ٠

40) فى ت : فضله ٠

41) فى ح 1 : هذه ٠

42) فى ح 1 وح 2 وت : سعادتكم ٠

على يومه غده ، ومن غضبتم عليه ، نعوذ بالله من شر ما لديه ، حالفه الخسران ، وعانقه الخذلان ، وضيع الامن والايمان (43) ، فلا دنيا الا بك ومعك ، ولا دين الا لمن تولاك واتبعك ،

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والانام غضاب (44)

فالله يعلم ، أن هذا التوهم ، رمى سويداء قلبى فأثبتها (45) ، / وطرق مجتمعات آمالى فشتتها ، [7] واسترجع مسراتى أجمعها ، وأزال عن نفسى فى السلوة طعمها (46) ، ولا تسأل عن ضنين تطرقت اليد الى رأس ماله ، أو عابد توزع متقبل أعماله ، لكن الثقة بما خص الله به نفسكم الزكية من شرف الذات، وكمال الصفات والادوات ، من العقل الذى يفرق بين الحق

43) فى ب وت : الامان .
44) من الطويل . قائله ابو فراس . الديوان ج 2 ، ص 24 . من قصيد قاله فى الاسر بالقسطنطينية ، ووجهه الى سيف الدولة .
45) فى ح 1 : ففتتها .
46) فى ب وح 1 وت : طمعها .

وضده، والعدل الذى لا يخرج الشىء عن حده، والحلم (47) الــذى لا تضعضع هضبته الجنايــة ، والانــاة التى لا يستفزها الاغراء ولا تستهويهــا السعايــة ، والتبصر بدسائس الفتنــة وأسبابهــا ، والمباعــدة لأصحابهــا وأربابهــا (48) ، والاعــراض عــن الوشــاة ، والرفض للبغــاة ، والهجــر لمــن بغــى ، والزجــر لمــن جــاح بمكــروه أو رغــا ، وبمــاذا أحليــك وعنــك تقصر الحــلى ، وبــك يتزيــن الدهــر ويتحــلى ، فــاقسم ببــارىء النسم ، وهــو أبر القسم ، ما فازت بمثلــك الدول ، ولا ظفرت بشبهك الملوك الاواخر والاول ، ولو تقدمت لم يضرب الا بك المثل ، على أن اعترافى لجنابكم بهذه الشيم ، انما هو من باب التحدث بالنعم ، لاننى فيك من أكبر الشيعة ، أفتخر بصفاتك الرفيعة ، ومــا جبلت عليه من كرم الطبيعة ، / ولا أرى حبك الا دينــا [8] وشريعة ، وأرجو أن يكون هذا الحب لسعادتى ذريعة ، وبقدره يكون الجزاء والصنيعة ،

47) فى ب وت : الحكم ·
48) فى أ لاربابها واصحابها ، قلبنا الوضع حسب النسخ الاخرى ·

وان شوركت فى حبك يوما
فليت بقدر ما أهوى ثوابى (49)

فعياذا أن يصغى مقامكم الى كلام يتمشى الزور فى مناكبه ، ويتردد البهتان فى مذاهبه ، ويقوم البرهان على بطلانه ، ويشهد الحسن بخسران قائله وخذلانه ، أحرى اذا صدر ممن يروم فسادا ، ويسوم أسواق الفضائل كسادا ، ويسد من الخير بابا ، ويوقد للفتنة شهابا ، أو من مخبر جاهل بالمعانى والاغراض ، مقابل لما لا يفهمه بالاعتراض ،

وكم من عائب قولا صحيحا
وآفته من الفهم السقيم (50)

وكلا الصنفين (51) لا يعول على نقله ، ولا يستند الى دينه ولا الى عقله ، فما أقوالهم فى الحساب ، الا كما طن

49) من الوافر . وفى الوزن خلل . والاصح كما فى ت :
وان فى حبكم شوركت يوما ...
لم اعثر على قائله .
50) من الوافر . قائله المتنبى . الديوان ج 4 ، ص 120 .
51) فى ح 2 : النصفين .

الذباب ، فلا يناويه بصفيره العصفور ، فكيف يجاريه
بزئيره الليث الهصور ،

سواك يعي قـول الوشاة مـن العـدا
وغيرك يقضي بالظنـون الكواذب (52)

وجنابكم ـ حرسه الله ـ بصير بأن لي أعداء كثيرة ،
ووقائعي معهم لديكم شهيرة، فعيونهم تحرسني بالغيب،
ويتمنون / لي الريب ، ولا سيما لما أنسـوا أن عنايتكم [9]
بعبدكم موصولـة ، ومكارمكم لـه مبذولـة ، فتأججت
قلوبهم نارا ، وأضحوا يشترون لي أعوارا ، ويتبعون لي
آثارا ، ويشيعون عني أخبارا ، يزيفها العقل اختبـارا ،

ان يعلمـوا الخـير يخفـوه وان علموا
شرا أذاعوا وان لم يعلموا كذبوا (53)

---

52) من الطويل . لم اعثر على قائله .

53) من البسيط . من شواهد الجملة الشرطية . الوسيلـة الادبيـة ج 1 ، ص 202 .

ان يعلموا الخير أخفوه وان سمعوا — شرا أذاعوا وان لم يسمعوا كذبوا

والظن ان المتاعي يستشهد بهذه الابيات من ذاكرته .

فاذا نظرت في جملة هاته الاصول (54) حسن ظني ، وزال هذا التوهم عني ، حتى اتصل بي على لسان بعض الشمات ، وحفظة المذمات ، وأعوان النوب الملمات ، خبر يخبىء نور الحياة ويطفيه ، وهو ان ما خفت منه وقعت فيه ، من تغيير (55) خاطر سيدي ، وركني وسندي ، والعدة التي نمد لنصرها (56) يدي ، بما تواتر لديكم في شأني من المعائب ، فلا ترى لي الا شانئا أو عائب ، بخبث السعي ، وقلة الوفاء والرعي ، وخلق خرجت وساءت ، وأفعال شتى بعدت عن الخير وتناءت ، عدت من هناتي (57) ، ومحت سائر حسناتي ، حتى توغر صدركم علي ، فسددت سهام توعدكم الي ، ونويتم طرحي وهجري ، وأعرضتم بوجهكم عن صباحي وفجري ، فمن حين تعرفت هذا النبأ لم أطعم النوم هنيا ، ولا اقتطفت الامل جنيا ، ولا زلت بتحقيق الخبر معنيا ،

---

(54) في ت : الفصول .
(55) في ح 1 وت : تغير .
(56) في ب : تمد لنصرتها ، وح 2 : تمد ، وت : العمدة التي تمد لنصرتها يدي .
(57) في ب وت وح 1 : هفواتي .

[10] فاستبهم / الحال علي ولم أعلم (58) له تفسيرا ، فصاد جناحي الوافر مهيضا (59) كسيرا ، وصار معنى خلاصي مبهما عسيرا ،

وكيف يلذ العيش في غيظ سيد
وما لذ لي يوما على عتب صاحب (60)

ففاضت نفسي عند ذلك جزعا ، ورجف القلب فزعا (61) ، وذهب لبي مقسما بالافكار موزعا (62) ، فتارة أكذب الخبر ، وآنف ان يعتبر ، ولا اعده فيما يذكر ، فكيف فيما ينكر ، اذ خلاصة ما يرمونني (63) به العدى ، على المدى ، هو أني مقبل على لذاتي ، ساع في جلب المكروه لذاتي ، نبذر المال جزافا ، وننفقه اسرافا ، فنصرف مكان العشرات مئين ومكان المئين آلافا (64) ، وغير خاف ، على

---

58) في ت : ولم أفهم ٠
59) في ح 1 وت : هضيما ٠
60) من الطويل : لم اعثر على قائله ٠ القافية في ب وح 1 وت : صاحبي ٠
61) العبارة ساقطة من ح 1 ٠
62) العبارة ساقطة ايضا من ح 1 ٠
63) كذا في كل النسخ ٠
64) في ب : مكان العشرين ومكان المئين آلافا ، وح 1 وت : مكان العشرة ٠٠٠

ذى فكر صاف ، وعقـل شفاف ، ان الاخبار مهمـا نقلت تعتريها الزيـادة ، سنة الله فى العرف والعادة ، هـذا اذا لم يكن للناقل غرض ، وليس فى صدره مـن الحقد مرض ، أما اذا كان ، فقد يصور للعيان ، مـا ليس فى حيز الامكان ، فلا تظن السيـادة أنى (65) أتيت منكرا أو قبيحا ، أو كل (66) ما يرفع عنى صحيحا ،

لا تـأخذنى بأقـوال الوشـاة ولـم
أذنب وان كثرت فى الاقاويـل (67)

وعلى فرض صحة ما سعت به عداتى ، فمكروه ذلـك قاصر على ذاتى، / لا يتعدى لاحد، حتى يحنق على ويحقد، [11] ويضمر (68) لى عداوة ويعتقد ، فمن المفترض البعيد . والساقط الذى لا يصحبه تأييد ولا تسديد ، ان ترمينى

65) فى ح 1 : أننـى .
66) فى ب : أو أن كل .
67) من البسيط : قائله كعب بن زهير ، فى قصيدته « البردة » الشهيرة واولها :
بانت سعاد فقلبى اليوم متبول   متيم اثرها لم يفد مكبول
وهى القصيدة التى عارضها احمد فارس الشدياق فى مدحه احمد باى .
68) فى ت : ويظهر .

بسهام بغضك واعراضك، وتجعلني غرضا من أغراضك، مع اني لم أجن في خدمتكم ذنبا ، ولا ثنيت عن (69) مضجع الطاعة جنبا ، ولا لقيت حبك باهمال ، ولا أعملت (70) في غير رضاك حركة يمين ولا شمال ، اللهم الا اذا رمتني زمرة الفساق ، المولعين بالشقاق ، السكارى (71) بكأس النفاق ، بغير ما تقدم من ذميم هاتيك الاوصاف والاخلاق ، مما يوجب بغضي ، ويدعو الى رفضي ، فالله وكيل ، على من تقول على بالاباطيل ،

وكن لي وكيلا يا وكيل عليهم
وحسبي اذا كان القوى موكلا (72)

لكن العلم بما ثبت وتقرر ، وتردد وتكرر ، وتخلص بالحس والمشاهدة وتحرر ، ووضح وضوح الشمس لمن ابصر ، فان الدعاوى اذا قامت بين يدي خلافتكم ، التي

69) في ب وح 1 وت : لغير .
70) في ب وح 1 وت : عملت .
71) في ح 1 : السكرى .
72) من الطويل ــ من قصيدة دينية صاحبها نور الدين الدمياطي ، وأولها :
بدأت باسم الله والحمد أولا على نعم لم تحص فيما تنزلا

قامها الله قسطاس حق ، فلا يلتبس لديها باطل بحق ،
تزنها بميزان تمييزها ، فتفرق بين شبهها وابريزها ،
فلا تقبل عندكم دعوى من غير دليل يعضدها ، وشهادة
تؤيدهـا .

[فتارة] (73) يسكن قلبى الذى صار من الخوف عليلا ،
[12] ويزيل عنى الوهم / قليلا قليلا ، اذ من المحال ان تعمل بكل
دعوى (74) وان كانت شططـا ، وتعتمدها وان كـانت
كذبا أو غلطا ، ونجرى على تلك المحجـة ، ولا تلتفت الى
وضوح الحجة ، تقليدا لفلان أو فلان ، كائنا من كـان ،
وتارة يضطرم القلب ويضيق ، ويلتبس عليه فى جنح
هذا الخطب الطريق ، ويضطرب الفكر ، ويخوننى الصبر
والسبر ، ويحار العقل ، فأصدق ذلك النقل ، وما ذلك
الا لأوهام استحكمت ، وظنون سوء جارت اذ تحكمت ،
كيف وقد عضدت بـالنقل وأيدت ، فاضطراب البـال
بمثلها أحرى ، والشفيق كما قيل بسوء الظن مغـرى .

73) ساقطة من أ وح 2 ، مثبتة فى غيرهما .
74) فى ب وح 1 وت : ان تعمل بدعوى .

فأرى انلى أعداء لا تنضبط (كذا) بحد، ويقصر عن بعضهم العد ، منهم مجاهر ، لسيف البغى شاهر ، ومنهم دائم للبغض مسر ، متماد على النفاق مصر ، فبعض دون بالقسم (75) الثانى يدعى الشفقة والتوجع ، ليدس فى (76) ذلك السم المنقع ، اذ طعن القريب يردى ويصرع ، وشهادة الحبيب لا ترد ولا تدفع . وبعض يدعى الاتصاف ، بالعدل والانصاف ، ويرمينى بما يصل وخزه للقلب والشغاف ، يزعم أنه قول بلا خوف واعتراف ، لم ينشأ عن حب ولا عن انحراف ، ويا سيدى [14]
ومن فلق / الحب ، ودرى ما مشى وما دب ، ومن سمى [13]
نفسه الرب (77) ، لم يكن منى لعداوتهم سبب ، سوى انى لست ذا ملق ، الا لمن أود بحق ، ولى لسان ذلق ، مع من فى حبه مذق ، ونفس تأنف من الامتهان ، ولو كانت بين السيف والسنان (78) ، وذلك هو الذى نال من

75) فى ب وح 1 وح 2 وت : من القسم .
76) فى ب وح 1 : لى ، وح 2 : فى أثناء ذلك .
77) نلاحظ ان هذا قسم .
78) فى ب و ح 1 وت : بين السيف فى موقع الطعام . والسنان . ج اسنة وهو نصل الرمح .

غربى ، وكان سببا لطول كربى ، حتى ضفى (79) على حرمانى ، وما صفا لى زمانى ، فتقدمتنى أقرانى ، وكثيرا ما أوردت الأنفة أهلها ، موارد لم يحمدوا صدرها (80) ، وليتنى كنت ممن باعدهــا وهجرهــا ، ولــو كــان فى طوعى ، تحويل خلقى وطبعى ، لكففت عــن هاته (81) الخلق ، وانصرفت عن (82) تلك الطرق ، فاتخذ النفاق دينا وملة ، وأدور فى سائر الأحوال مع العلة ، وأجعل الملق ديدنا (83) وعادة ، فقد قال ابن خلدون (84) أنــه [من] أسباب السعادة (85) ، وقد شاهدنا مصداقــه فى أهل الزمان ، وما بعد العيان بيان ، لكن ذلك بيــد البارىء ، لا بيدى واختيارى ، فالانسان أسير الاقدار ،

---

79) فى ت : ضفر .
80) فى ب وح 1 وت : صدورها .
81) كذا فى أ وب وت وح 1 وفى ح 2 : هذه .
82) فى ح 2 : الى .
83) فى ح 2 : التملق دينا .
84) عبد الرحمان ابن خلدون (732 ـ 808 هـ / 1332 ـ 1406 م) .
85) انظر : المقدمــة : ط. القاهرة 1930 : الفصل السادس فى ان السعــادة والكسب انما يحصل غالبا لاهل الخضوع والتملق وان هــذا الخلق من اسباب السعادة .
من : ساقطة من أ ، وفى ح 2 : احد اسباب السعادة .

مسلوب الاختيــار ، كما هى عقيــدة الكمــل مــن (86) الصوفية الاخيــار .

ولما كان حالى حسبما سردناه ، وعلى ما أوردناه ، فمن المسلم الذى لا يحتاج الى دليــل ، وان تكاثرت (87) فى / الاقاويل، بما ينقصنى فى العيون، ويعرضنى للهون، [14] ومما يعين معيبى ، على اختلاق معيبى ، حضوره ومغيبى ، فان من حضر الحكم وحده يصور لغرضه المحال ، ويتسع له فى القول الميدان والمجال ، فيجعل سيئه حسنا ، وكذبه صدقــا وباطله حقا بينــا ، ويقضى لنفسه بالفوز فى الخصام ، ويوليها الحجة البالغة فى جميع الأحكام ، وان كان وراء كل حجة أدلى بها ما يدحضها ، وازاء كل دعوى أبرمها ما ينقضهــا ، وتلقاء كل شكــوى صححها مــا يمرضهــا ، فكم بــين الشاهــد والغائب ، والفــروض والرغائب ، فان الغائب معه حجته ، فلا تسمع دعوته ، ولا تراعى حرمته ، فهو والميت سيــان ، والحى برجليــه

86) ساقطة من ت .
87) فى أ : مصوبة بالهامش ، وفى ب وح 1 وت : كثرت ، وح 2 : تكثر .

وهما ثنتان (88) ، أقوى من الميت على أقدام الحملة وهى ثمان ، ولله در القائل :

لو يجمع الخصمين عندك منزل
يوما لبان لك الطريق الأقصد (89)

ولا يبعد أن يصغى مقامكم الى تلك الترهات ، التى زخرفتها السعاة (90) ، وان كان لكم الفكر العميق ، والرأى السديد الوثيق ، لكن الخبر اذا تواتر ، لا بد أن يورث (91) ميلا فى الخواطر (92) ، وقلما تنكر / الطباع. [15] قولا امتلأت به الأسماع ، وارتجت بتكراره الأندية والبقاع ، وهل يرد حكم (93) أصله الاجماع ، وتارة ينجلى عنى سواد سائر الأوهام ، لما نعلمه أن طبع السيادة لا يحكم بنصف الكلام ، ولو أثر تواتره فى

88) ثنتان : مؤنث اثنان ، بحذف الالف ، وهى لغة تميم .
89) من البسيط : لم اعثر على القائل .
90) فى ب وح 1 وت : السعايات .
91) فى ح 1 : يؤثر .
92) فى ت : الخاطر .
93) فى ح 1 : علم .

خاطركم (94) ميلا ، لا يكون لديكم دليلا ، تقضى به فى شانى ، حتى تعلم نصف الكلام الثانى .

فوجب على أن نقرر شكايتى اليك ، وننشر بسط حالى لديك ، ليرتفع اللبس ، وتطمئن النفس ، فالصمت حينئذ من أوكد أسباب العطب ، وربما أدت الشكوى الى الفرج وبلوغ الأرب ، وفى المثل ترك الجواب ، يحقق الارتياب . وانما يكون السكوت حزما اذا لم يجد المظلوم عادلا مشكيا (95) ، وعلى ظالمه ناصرا معديا ، وأنت ـ ولله الشكر (96) ـ متحل من العدل بأكمل الصفات ، مسو بين الخصوم حتى فى نظر الالتفات ، تنتصف للضعيف من القوى ، وتجرى الحكم على السنن السوى .

وطرق التبليغ والاعلام ، لا تعدو ثلاثة أقسام ، أعلاها الحضور بنفسى فى ذلك المقام ، للاستراحة بمشافهة

(94) فى ب : خاطركم الشريف .
(95) فى ب وت : شكيا .
(96) فى ب وت : ولله تعالى الحمد .

الكلام ، لكن ذلك لأمثالى مما لا يرام ، وفى المثل منى كان
[16] هشام ، حتى / يتعدى الاطوار ، ويخرق حجب (97)
المهابة والاستار ، فينتصب لمخاطبتكم انتصاب المقربين
الأبرار ، ولو أسعدنى الدهر بلقائك ، والانتظام بين
يدى علائك ، لا زلنا نمتع (98) ببقائك ، لملات من زهر
العلا أجفانا ، ومن نهر الندى أجفانا ، ورأيت فرائن
الاحوال عيانا ، فأوليت شكيتى (99) بيانا ، وتتبعت
فصول السعايات أولا فأولا ، وتقريتها تفاصيل (100)
وجملا ، فأضيف الى كل فصل ما يبطله ، ويخلخل من
ينتحله ، حتى لا يدفع حججى دافع ، ولا ينبو عن قبول
أدلتى راء ولا سامع ، والفرق ما بين الخبر والعيان ، غنى
عن البيان ،

ولكن للعيان لطيف معنى
لذا سأل المعاينة الكليم (101)

---

97) في ب وح 1 وت : حجاب .
98) في ت : نتمتع .
99) في ح 1 : شكيتى ، وت : شكاتى ، وجميعها مصادر لشكا .
100) في ب وح 1 وت : تفصيلا .
101) من الوافر . من الشواهد . صبح الاعشى ج 14 ، 271 .
ولكن للعيان لطيف معنى له طلب المشاهدة الكليم .

وأوسطها تبليغ الكلام برسول ، يفي بالقصد والسول ، حتى يكون لجراحي طبيبا ، ويقوم بشكيتي (102) في حضرتكم خطيبا ، فيثير حنينا ، ويحرك للملك عزما كمينا ، ويروي عني أحاديث صدق أضحى لنقلها أمينا ، ولا يأتي (103) ذلك الا من صديق صدوق ، وهو أعز من بيض الأنوق (104) ، انقطعت دون وجوده الاطماع ، وانعقد الاجماع ، بأنه كالكبريت الاحمر ، لا يوجد ولا يبصر ، وان غدت أخباره تذكر ،

بمن يثق الانسان فيما ينوبه
ومن أين للحر الكريم صحاب (105)

[17] / فلما لم نؤمل وصولا ، ولا صديقا اتخذه رسولا ، انحصر لدى التخيير ، في القسم الاخير ، وهو الكتابة ، مع ما فيها من خرق حجاب المهابة ، اذ من أنا حتى

---

102) في ب وح 1 وت : شكايتي .
103 في ب وح 2 وت : لا يتأتى .
104) من هنا يبدا السقوط في ب .
105) من الطويل . لم أعثر على قائله .

أتشرف بمكاتبــة تلك المثابــة ؟ لكن الضرورات (106) تبيح المحظورات ، على انها لا تفى بالغرض بــالمحض ، وحنانيك بعض الشر أهون من بعض ، ومن لم يجد ماء يتيمم (107) بصعيد الارض ، فــان حديثى أكثــر مـمــا تسعه العبارة ، والالفاظ المستعــارة ، وماذا عسى أن يبلــغ القلم وان اطــرد ، أو ينتهى وان شرد ، ولــولا تلون الامراض التى ترددت فى لهواتها ، وكدت أتردى فى مهواتها ، لما أبطأت المبادرة بهذا الامر الواجب ، حتى بلغت فى مداها المهالك والمعاطب ، ففوات الفرص ، من أشد الغصص .

لــكــن منــذ أوقعت (108) الــوقيعــة التى لــم يسمع بمثالها ، وأنا أعــانى مــا أعــانى من الآلام التى تكسرت نصالها على نصالها ، وضعفت قواى عن مواقعها واحتمالهــا ،

---

106) فى ح 1 : الضروريات ٠
107) فى أ يتمم ٠ صوبناها كما النسخ الاخرى ٠
108) فى ح 2 : وقعت

ويصعب حمل الهم والهم مفرد
فكيف ترى فى حمله وهو توأم (109)

فما وجدت معها للكتابة طريقا ، ولا سوغتنى فى ذلك ريقا ، فلزمت الفراش مدة ، منتظرا للفرج بعد الشدة ، مؤمنا بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، موقنا / بأن مع [18] العسر يسرا وأن الأيام رطب وبسر (110) ، وصفقة الفضل لا يتعقبها خسر ، وأن الحوادث تنعكس الى الاضداد ، اذ تناهت فى الاشتداد ، وتزايدت على الآماد (111) ، ولكل شيء أمد (112) يستوفيه ، وغدا لا يدرى ما الله صانع فيه ، الى أن شمت فى هاته الايام بوارق الفرج ، وانتشقت من روح الله بعض الارج ، [فـ]ـأعدت (113) الالتفات ، لتدارك ما فات ، ومن أخر واجبا لعذر ثم قضاه ، كمن أوقعه فى وقته المختار وأمضاه ، فللضرورات أحكام تمضى ، والفروض

109) من الطويل . لم اعثر على قائله .
110) فى أ : رطبا وبسرا ، أصلحناهما .
111) من هنا ينتهى السقوط فى ب .
112) فى كل النسخ : أمدا .
113) الفاء ساقطة من أ ، مثبتة فى غيرها .

الفـوائت تقضى ، ومن تأمـل فنـاء جسمى ، وشمول النحول لحمى وعظمى ، رأى عـذرى واضحـا ، ودليلـه راجحـا ، وفي المثـل « لسان العيان ، أنطق مـن لسان البيان ، وشواهد الاحوال ، أعدل من شواهد الاقوال »، فأنشأت على ما أعانيه (114) من فؤاد دام ، ودمع هام ، وقريحة جامدة ، وفكرة خامـدة ، قـد طمست نورهـا الأيام ، وغيرت آثارها اللئام ، وأضعفت قوى جوهرها الآلام ، هاته الرسالة نشرح لكم من أمرى ، ما عيل لـه صبرى ، وضاق عن حمله صدرى ، حتى يتضح عذرى ، ويحصل لديكم بنصف الكلام العلم ، ويرتفع (115) الظن والشك والـوهم ، فينبنى اذ ذاك على أصلـه الحكـم ، [19] ومثلكم / من يتأمل الامور ، ويعلم مـن صدور الاقوال أعجـاز مـا فى الصدور ، ومهمـا اختلفت الاقاويـل ، يستعمـل ميـزان الترجيـح والتعديـل ، حتى يخلص الصحيح من العليـل ، فان صدقكم لسانى ، فاصلحوا شانى ، وأجدوا سعدى ، وأسعدوا جـدى ، وان كذبكم

114) ساقطة من ح 2 .

115) فى ب وت : ويرفع .

فمي ، فمزقوا أدمي ، وأريقوا دمي ، كما هو المقطوع به عن سيدي وطباعه ، يحمي الملهوف بباعه وذراعه ، وينتقم من المخطيء كيلا له بصاعه ، ولولا أن جنابكم المشرق السعد ، نهضت بعزماته (116) الماضية ميامين الجد ، للوجهة التي يكون فيها الخير طريقا ، والتوفيق رفيقا ، ودفاع الله من دونكم سدا ، والملائكة جندا ، والعصمة سورا ، والروح الامين (117) مددا منصورا ، حتى تعود وسلك جندكم قد اتسق نظامه ، وملككم قد تيسر من الظهور مرامه ، والبنود بالنصر خافقة ، وألسنة الطبول بالظفر ناطقة ، وأسواق البشائر نافقة، والظنون في فضل الله سبحانه صادقة ، وأخاف ان لم أعرفكم بالمظالم التي علي جرت ، والشدائد التي خلصت لي وتشجرت، أن حالتي هاته تتصل، وعراها لا تنفصل، فأموت أسفا ، وحسبي الله وكفى ، / لما خططت الآن في [20] نازلتي طرسا ، ولا سمعت للقلم جرسا ، الى أن تستقر الصحة في مهادها ، وترجع الفكرة الى أفضل معتادها ،

116) في ح 2 : بعزماتكم .

117) هو الملك جبرائيل عليه السلام .

فالجوارح بالكلال (118) تعذر ، ووظائف الغد تنتظر ،
وأنتم أيدكم الله لما طبعتم عليه من كمال الخلق والخلق ،
لا ترون الحق ، لمن بادر بالسبق ، بل الحق عندكم لمن
صدق ، ولو تأخر ولحق . ولما حل السفر ، ألممت بذلك
كيفما تيسر ، والقصور باد لمن سير ، والاغضاء من
فضلكم أول منتظر ،

وفضلك في الاغضاء عما كتبته
فليس يجيد الكتب من عدم الحسا (119)

وها أنا لسيدى (120) أقص الحكاية على طولها ،
بأنواعها وفصولها ، على أوضح سبيل ، والمسلم الذى
لا يحتاج الى دليل ، ولا يحتمل نصه التأويل ، ولا ينطرق
صحيحه التعليل (121)، والله الجليل، على ما نقول وكيل،
ولا تسأم سيدى من التطويل ، فان الحال ، اقتضى
الاطناب في المقال ، وان حديثي لعبرة لمن ألقى السمع ؛

118) في ب وح 1 وت • بالكلل •
119) من الطويل • في كتابته خلل في ح 1 وت • لم اعثر على قائله •
120) ساقطة من ب وت • وفي ح 2 : يا سيدى •
121) في أ : عوض التاويل التعليل ، اصلحناها حسب ح 2 •

وموعظة تهز الجمع ، وترسل الدمع ، وحادث سيجمل (122) الله بمنه فيه الدفع .

وذلك أني لما اختصمت مع الاحدب (123) ، ذي الباطن الاخيب ، فبرق وده خلب ، وعهده روغان ثعلب . ندب / لحربي من شيعة الفساد ما ندب ، وأجلب من [21] شياطين الاوغاد ما أجلب ، فأتوه ينسلون من كل حدب ، من قاض ، لعرى الدين قاض ، وعدول عن الله (124) عدول ، وكتاب ، ليسوا من أهل كتاب ، منهم الفظ الغليظ ، ذو الجهل الطويل العريض ، صاحب اللقب السلطاني ، أحمد العثماني (125) ، وتلك عادة أهل بيته في الاسماء ، عن غير رتبة شماء ، فهم ألقاب في السماء ، وأحساب تحت كرة الماء .

ومنهم المسلوب الظرف ، من لا ينظر الى الانسانية بطرف ، من خلع في السخف الرسن ، ولم

122) في ب وت : سيجعل .
123) يقصد احمد ابن ابي الضياف (م . 1874) .
124) في ب وت : الحق .
125) احمد العثماني بوعتور (م . 1854) كاتب بديوان الانشاء ، انظر :

ينتبه الله النبات الحسن (125 مكرر) ، الجارى من التهور على أقبح سنن ، من اجتهد فى القذارة والعفن ، فشرع وسن ، حمودة بوسن (126) .

ومنهم المجهول النسب ، الخامل الحسب ، محمد بن سعيد (127) ، وكلا أن يخرج مثله من ظهر سعيد ، بل هو هيان بن بيان ، شىء يسمع ولا يرى للعيان ، حسبما روينا عن الاعيان .

فهؤلاء زوروا له شهادة ، وليسوا من أهلها شرعا ولا عادة .

وممن يلحق بهذا النمط ، ذو الجهل والغلط ، واليد التى فى غير الزور لا تخط ، الساقط الهمة ، الكبير المذام القليل الذمة ، أحمد الغريانى (128) ، [22] / على أنه

---

125 مكرر) اقتباس من القرآن الكريم : سورة آل عمران ، الآية 37 : « فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا » .
ترجمته : الاتحاف : ج 8 ، 93 ـ 94 .

126) (م · 1869) كاتب ايضا بديوان الانشاء : انظر ترجمته : الاتحاف : ج 8 ، 173 ـ 174 .

127) لم اعثر على ترجمته .

128) لم اعثر على ترجمته .

ربما يعذر فى شأنى ، اذ العداوة بينى وبينه أكيـدة ، قبل الوقيعة بمدة مديـدة ، بخلاف من سواه مـن هؤلاء الانذال ، فانه لم يسبق بيننا سوء بحال ، وهو ما عنده من الغرض ، لم يشهد بنفسه ولا تعرض ، وانمـا لما رأى قـتـام الشر بـان (129) ، بينـى وبـين ذلـك السرطان (130) ، نهبت (131) العـداوة حرصه ، وفعـل فعل الضعيفة [التى] (132) أصابت فرصة ، فأعانـه بشهود من جنود زوره ، وحبائل غروره .

ومن الكتاب من ليس من فرسان هذا الحرب (133) ، ولا من أهل الطعن فيه والضرب، ولم يعينوه باشهاد، ولا امداد ، وانما تقربوا لـه فى عـداوتى بتكثير السواد .

أولهم ذو الجهل والرعونـة ، والـذات الملعونة ، التى تروع الكلاب بقبحها ، فتحرس نفسهـا منه بنبحها ،

129 القتام : الغبار الاسود ، او الظلام والسواد . هنا تعبير مجازى عـن ظهور الشر .
130) اشارة الى احمد ابن ابى الضياف .
131) فى ح 1 وح 2 وت : نبهت .
132) ساقطة من أ : منبتة فى ح 1 وت .
133) الحرب : مؤنثة وقد تذكر .

الحائز من المخازى ما هو واف كاف ، حسن بو كاف (134) .

وثانيهم ذو الاخلاق الردية ، والنفس الدنية، الضارب فى الثقل بالسهم المصيب ، وارث الركاكـة بالفرض والتعصيب (135) ، طلعة الرقيب ، عند الخلوة بالحبيب ، حمى الروح ، وغم المنبسط المشروح، الهم (136) المفاجى، عنصر الوخم الباجى (137) ، وما أشوقنى والناس الى [23] / تطهير الملك من أرجاسه، والهواء من أنفاسه، فقد ورد فى الاثـر ، « أن النظر الى الثقـلاء يضعـف البصر » ، وناهيك بمن تألمت منه نفوس الصحابة أولى (138) الخلق الكريم ، والثبات العظيم ، أعلام الصبر (139) والتسليم، فقد صح عن بعضهم رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول

134) (م • 1842) كاتب بديوان الانشاء ، وهو كاتب قاصر ، ردىء حسب ابن ابى الضياف • انظر ترجمته : الاتحاف : ج 8 ، 51 •

135) الوارث بالفرض هو من حدد نصيبه من الميراث بالكتاب او السنة • كالزوج والزوجة والام • والوارث بالتعصيب من لم يحدد نصيبه ويرث باقى التركة بعد اخذ اصحاب الفروض فروضهم كالابن والاخ •

136) فى ح 2 وت : ذلك الهم • وفى أ : ذلك مشطوب عليها فحذفناها •

137) الباجى المسعودى (1810 ـ 1880) ـ الكاتب والاديب والمؤرخ والشاعر • انظر ترجمته : شجرة النور : ج 1 ، 395 • عنوان الاريب : ج 2 ، 134 ـ 136 • المنتخبات ص 172 • وهنا تورية اذ اشتهرت باجة فى القدم بانتشار الوخم فيها •

138) فى ب : ذوى •

139) فى ح 1 : الصدر •

اذا رأى ثقيلا ، وكفى به أسوة وبقولـه دليلا ، « اللهم اغفر لـه وأرحنا منه » (140) ومما يستروح منه ، أنـه مبغوض للمولى جل وعلا ، ما يروى عن بعض الفضلاء ، أنه قال : « من فاتته ركعة الفجر فليلعن الثقلاء » ، ولا خفاء في ذلك حيث جعل لعنه من القربات ، التي تقضى بها فوائت العبادات .

وهذان وان كانا لفظا بلا معنى ، وشجرا بلا مجنى ، يستغرب عدهما في الحساب ، فلا أقل من الذباب ، فقد ينقص الطعام والشراب .

ومن غير هؤلاء رجرجة لا تحصى ، وأعداد لا تستقصى ، وما هم الا كـلاب قد تعاوت ، وشياطين قـد تغـاوت ، ائتلفوا على أخـلاق متنـافرة ، ونفوس بعضهـا ببعض كافرة ، للتعاون على حربي ، والتساعد على ادالة خطبي ، حتى تمت على تلك الحكومة التي هي أم الحوادث العظام ، يأباها الله والاسلام ، وتأباها العلماء الاعلام ، وتأباها

140) قائله ابو هريرة . البيان والتبيين : ج 1 ، 403 . (ط . عبد السلام محمد هارون) .

[24] المآذن والمنابر ، وتأباها / الاقلام والمحابر ، واذا أردتم افتضاح العاطل ، واتضاح الحق من الباطل ، فأذنى (141) أشرح النازلة برمتها ، وبراهينها وأدلتها ، وأدخلها (142) بطن قرطاس ، وأوجهها لمصر وفاس ، ففيهما من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده ، وتمضى الحدود بتحديده ، فان تظافرت منهم الفتاوى بأن حججى لا تدفع ، وأدلتى لا يسع (143) انكارها ولا ينفع ، وأن ذلك الحكم (144) مستنده الاستبعاد ، وما أبعد هذا الاستناد ، اذ هو فى واد ، والنازلة فى واد ، حكم عن الحق عاطل ، ومستنده باطل ، وسحاب الدين عليه غير هاطل ، وأنه من الغريب الذى لا يتمثل الا فى الحلم ، يحار فيه الفهم ، ويفرط الوهم ، ويعتبر فيه أهل العلم ، تعلم بأن ذلك القاضى ، الذى لم يسمع بمثله فى الزمن الماضى ، مجترىء (145) على الله غير مراقب ، وأنه يفعل (146) ما

141) فى ب وت : فائذنونى ·
142) فى أ وح 1 وت : أخلدها ·
143) فى ح 2 وت : لا يسمع ·
144) فى ح 2 وت : الحكم الذى ·
145) فى أ : مجتريا · وح 1 : فتجرى · وت : متجر ·
146) فى ت : فعل ·

شاء غير متلفت للعواقب ، وأن بقية فريقه ، الذين على هذا الحكم وطريقــه ، ليس فيهم زاجر ، وليس منهــم الا غوى وفاجر ، قد أنشأوا من العصبية ، ما أماتوا به الملة الاحمدية ، وأحيوا بها ما أماتته مــن (147) حميــة الجاهلية ، فتعرض عنهم ، وتنفض يدك منهم ، وان أفتوا بــأن القــاضى مــا قضى ، الا بالوجــه المرتضى ، وأن حكمه / لا ينازع فى حقه ، ولا يضايق فى طرقه ، فلك [25] الحكم فى (148) بما ترى ، حتى تجعلنى عبرة للورى .

وليعلم سيدى أن الــداعى لهــذا النفور ، بينى وبين ذلك الكلب العقور (149) الذميم الخلق (150) المحقور . وان كان هو عند نقده، ممن يفرح بفقده، ففرقته غنيمة، والظفر به هزيمة ، أمــور يصان جنابكم عن ذكرهــا ، وسماع نكرها ، وكان والله هو البادىء فيها ، فقابلت فعاله بما تقتضيهــا ، فتدرع لى بدروعــه المحاكــة على

147) ساقطة من ب وت : حيث الحمية معرفة .
148) ساقطة من ت .
149) اشارة أيضا الى أحمد بن أبى الضياف .
150) الخلق : ساقطة من ب وت .

نـول (151) المكر والخديعـة ، وكادنى بهاتـه الوفيعة الشنيعة ، وما درى البليد ، أنه يلحقه منها من العـار الذى لا يبيد ، ما يلحقنى أو يزيد ، بل أنا من عارهـا عرى ، ومن وزرها برى ، فقد بذلت جهدى ، ووقفت الى غاية حدى ،

ومـن بـذل المجهود حـق لـه العـذر
وليس عليه أن يساعـده الدهر (152)

ولولا الغيرة الدينية والطبيعيـة (153) ، والاغراض النفسانية ، لاتخذت يوم فراقها عيدا ، وموسما جديدا ، فلقد (154) كانت على فؤادى كلا ، وفى عنقى غلا ، ولم يقنع ذلك الملحد ، المبـدع (154 مكرر) المتمرد ، بهـذا الحادث الذى هو علم مفرد ، بل لا زال (كـذا) يعرضنى للمحن ، ويسعى لان أمتهن ، بكل وجه أمكن .

---

151) النول : آلة للحياكة . انظر : ملحـق القواميس العربيـة لـدوزى . وفى ح 1 وت : على قول .
152) من الطويل . لم اعثر على قائله . وهو منثور فى أ .
153) فى ح 1 وت : والطبيعة .
154) فى ح 2 : فقد .
154 مكرر) يقصد المبتدع .

فمن ذلك ما ادعاه بحضرتكم العالية / المجد ، بأنني [26] ملول في الود ، سريع نقض العهد ، لا نرعى (155) حرمة ، ولا نرقب في أحد الا ولا ذمة ، ولا تثمر لدى غراسة نعمة ، وأنه قد (156) كان قضى على ديونا لها بال ، فلم تكن مكافأته مني الا بالنكال ، ولبئست الخلال والفعال ، يأباها أولو النهى والكمال .

كما ادعى بعلي تلك الحضرة (157) ، غير ما مرة (158) ، بأن والدي (159) قدس الله روحه ، ونور ضريحه ، قد كان من رشدي آيسا (160) قانطا ، و [أنه] (161) نوفي والعياذ بالله على ساخطا ، ووالله الذي جعل اسمك

155) في ب وح 1 وت : لا نراعى .
156) ساقطة من ب وح 1 وت .
157) في ب وت : لعلي حضرتكم .
158) العبارة ساقطة من ب وت ، وفي ح 2 : غير ما مر .
159) والده هو محمد المناعي (م . 1831) كان كاتبا بديوان الانشاء ، ومدرسا بجامع الزيتونة ، انظر ترجمته : الاتحاف ج 7 ، 164 ـ 166 . وانظر مقدمتنا اعلاه ص 31 ـ 33 .
160) اصلها يائسا . وقلبت الاحرف من جراء عملية صوتية .
161) ساقطة من أ وح 2 : مثبتة في غيرهما .

... فالا ، ووجهك جمالا ، وقربك جاها ومآلا ، لقد كـذب وفجر ، فى جميع ما ذكر .

أما ما ادعاه مـن قضاء الدين المذكـور ، فهو محض تدليس وزور ، وقد ضل اللعين عن بيت القطا المشهور .

تميم بطرق اللـؤم أهـدى من القطـا
وان سلكت سبـل المكارم ضلت (162)

فمتى عرفت (163) بيتهم باغاثة الملهوف ، واصطناع المعروف، وبذل المئين والألوف ؟ بل قد علم الله والناس، وثبت بالحق الذى لا يشوبه التباس ، أن المكارم ، عند أهل بيته من المحارم، وفى المثل : « كل انسان يجرى على عرق (164) أوليه ، وكل اناء يرشح بما فيه » ، وانما

162) من الطويل • من الامثال فى الحيوانات • انظر الجزء الثانى من حياة الحيوان الكبرى للدميرى، بدون ذكر لصاحبها • وبهامشه عجائب المخلوقات للقزوينى ، والقطا : واحدها قطاة ، وهو نوع من الحمام • يقال فلان اصدق من القطا ، تبيض فى البرارى وتغيب عنها اياما وتعود اليها • ويقال : فلان اهدى من القطا •

163) فى ب وت : عرف •

164) فى ب وح 1 وت : عروق • وح 2 : عـرف •

قضاه عنى الاسعد الامجد ، الاسمى الاصعد (165) .
المحفوظ بسر السور والآى ، الاعز سيدى محمد
باى (166) على يد عبده شاكر ، وقد / صادفت الصنيعه [27]
ذمة حامد شاكر ، ففضله لا يمنعنى البعد أن أشكره ،
ولا ينسينى الشيطان أن أذكره ، فكفران الاصطناع ،
تأباه ـ والمنة لله (167) ـ لى طباع ، لها فى مجال
الرعى (168) باع ، فانظروا كيف امتن بمنة (169) الغير
على ، وجعل احسانه احسانا منه الى .

أما كفران النعم ، ونقض العهود وجحود الذمم ، فهم
يتوارثونها فى بيتهم خلفا عن سلف ، ذاتية فى طباعهم
لا تتخلف ، لا ينازع فى ذلك أحد (170) ولا يختلف ، فمن
ذلك أنهم كفروا بنعمتنا عليهم وهى شمس ظهيرة ، على

---

165) كذا فى أ وفى ب وت : الأقصد ، وح 1 : الاسعد .
166) المشير الثانى . تولى الحكم من 1855 الى 1859 كان ولى عهد ، وقائد المحال فى عهد ابن عمه المشير الاول احمد باى .
167) فى ب : ولله تعالى المنة . وح 1 : ولله المنة .
168) فى ح 2 : الرأى .
169) فى ت : بنعمة .
170) فى ب وح 1 : واحد .

مئذنة شهيرة ، فان والدى تداركهم بعد انتثار سلكهم ، وكان سببا فى رجوع حظهم وملكهم ، حتى رفعهم من قعر التراب ، الى سمك الحساب ، فهو يتم حجر بيتنا الكافل ، ورضيع ثدى احساننا (171) الحافل ، واسألوا باش مملوك (172) وسى محمد زروق (173) ، ينبئونكم (174) بما لأبى (175) عليهم من الحقوق ، وقد خابت فيهم بعد مماته أمانيه ، فما رعوا ذمته (176) فى بنيه .

وأما ما رمانى به من العقوق ، واضاعة ما للوالد من الحقوق ، فوالذى لا يحلف به المسلم كاذبا ، ولا ينجو من درك الحنث فى القسم به ذاهبا أو آيبا ، ما أخللت لوالدى بواجب بره ، ولا خلطت حلو اجلاله بمره ، ولقد كنت

---

171) كما فى ب وفى سائر النسخ : احسانها .

172) مهمته رئاسة ادارة القصر الاميرى (الصفوة : ج 2 ، 2 ــ 3) ، لم أقف على اسمه .

173) (م. 1867) وهو ابن الوزير محمد العربى زروق شريف الاصل ، سوى الظاهر والباطن ، ما دنس شرفه بشر ، ولا تسبب لأحد فى ظن ، ولا ذكر أحدا بين يدى مخدومه بسوء ، يقول الخير أو يصمت . انظر : ترجمته : الاتحاف : ج 8 ، 154 ــ 155 .

174) فى ب وح 1 وت : يعرفونكم .

175) فى ب وح 1 وت . بمالى .

176) فى ح 1 : ذمة .

لسائر [حقوق] (177) قاضيا ، فمــات عنى راضيا ،
وها هو سى محمود محسن (178) أعلم الناس بما لدى ،
فما يقوله / فى شأنى ماض على ، وكذلك مملوككم سى [28]
فرحات (179) ، فقد حضر لوالــدى عند الوفاة ، صحبة
سيده سى شاكير (180) ، ولا ينبئك مثــل خبير ، بــل
العقوق من صفات ذلك (181) الاعرج ، ذى القد المعوج ،
فكم لبر والده (182) أضاع ، ولشيطان الغواية أطاع ،
ولحقوق الابوة منع ، ولثدى عصيانها رضع ، حتى انــه
كان يقول فيه ، ما يثير الريبة فى نسبه لابيه ، لكل من

177) ساقطة من أ : مثبتة فى غيرها ·

178) (م· 1868) تولى امامة الجامع الاعظم بعد وفاة ابراهيم الرياحى · وكان معتقــدا عنــد الخــاصة ، فضلا عــن العامــة · انظــر : ترجمتــه : الاتحاف ج 8 ، 158 ـ 159 · وشجرة النور : ج 1 ، 392 ·

179) فرحات أمير لواء العسة · أحد أعيان المملكة · انظــر : تــرجمتــه : الاتحاف : ج 8 ، 133 ـ 135 ، وانظر كذلــك الجــزء 4 مــن الاتحاف ، ص 171 ·

180) الوزير شاكير صاحب الطابع ، قتل مخنوقا سنة 1837 · كان والــد ابن ابى الضياف من اصدقائه· انظر : ترجمته الاتحاف ج 8 ، 28 ـ 32· واخباره فى الجزء الثالث ·

181) فى ح 1 : ذاك ·

182) هو الحاج بالضياف ، انظر ترجمة المؤرخ لابيه : الاتحاف : ج 8 ، 37 ـ 38 · يقول فيها : « ولا أزكيه وأنا ابنه » ·

يسمع قوله ويعيه ، فطالما (183) تشدق بشتمه ، على ملا ومجمع ، ومرأى للخلق ومسمع ، بأفعال مشنوة ، ينافى الطعن بها وصف الابوة والبنوة ، منها أنه كان يقول : قد بلغ أرذل العمر (184) ، وهو على الفسق مصر (185) ، ومنها أنه كان يرميه بالداء العضال (186) . فهل ثمة غاية بعد عقوق هذا الضال ؟

هذا ولو تتبعت جميع ما افتراه فى جانبى من السعايات ، ورددتها بالآيات البينات ، لما اتسع لذلك (187) العمر ، ولا استراح من وساوسه (188) الفكر ، والحاصل أنه ما من ساعة تمر ، ويوم يكر ، الا هو وحزبه مجتمعون على حيلة يبرمونها ، ومكيدة بى (189) يتممونها ، فمن ذلك أنهم أغروا بى النصارى .

183) فى ب وت : فقد طالما ، وح 1 : فلقد .
184 ـ 185) : العبارتان ساقطتان من ح 1 .
186) فى حاشية أ : « أى الأفنة » هـ . وهى تلميح للمثل القائل .
« لكل داء دواء إلا الحماقة أعيت من يداويها » .
187) فى أ وح 2 : لغير ذلك .
188) فى ح 1 وت : وسواسه .
189) ساقطة من ب وح 1 .

فلاقيت مــن هولهم أخطــارا ، وتوقعت لولا عنايتكــم [بى] (190) خطوبا كبارا ، فلما ذهلت بالغصص ، وخفل أن أقع فى القنص ، أعملت / نظرى فيما يجمع منى ما [29] افترق ، ويرفع عنى ما طرق ، ويرفو ما من حالى مزق وخرق (191) ، فاتفق لشؤم (192) حظى المبخوس (193) ، ونكــد الطالع المنحوس ، أن ساقنى حــادى المصائب ، والقضاء الذى يكنى أبا العجائب ، لجناب الشيخ باش كاتب ، لتتسبب الاسباب ، ويبرز للوجود ما سطر فى اللوح والكتاب ، والا ففى بابكم الكفيل بالآمال ، الضمين لنجاح الاعمال ، غيره مــن الوزراء ذوى الافضال ، مــن يروض الصعاب اذا رامهــا ، ويتناول الامور المبرمــة فيحل ابرامها ، ويسهل مرامها ، وتروم همته الكواكب فتزاحم اجرامها ، ويستقل الكثير اذا سمح ، ولا يسترجع ما وهب ومنح ،

190) ساقطة من جميع النسخ الا من ب .
191) خرق ، ساقطة من ح 2 .
192) فى ب وت : لسوء .
193) فى ح 2 : المنجوس .

وكم فى الناس مـن حسـن ، ولكـن
عليه ، لشقوتى ، وقع اختيارى (194)

لو تخيرت [من] (195) وزرائكم غير هذا ، من يكون لمهماتى ملاذا ، ومن وقع الخطوب عياذا ، لكنت قد أتيت البيوت من أبوابهـا ، وطلبت النجـدة مـن أربابهـا ، والتمست الاعانة ممن هو أولى بها ، ولكن لله تعالى أقدار لا تجاوز مداها ، وأحكام لا تخطىء مرماها ، وآثار يحلها المرء ويغشاها ،

مشينـاهـا خطى كتبـت علينـا
ومن كتبت عليه خطى مشاها (196)

فالتجـأت الى ظلـه ، وعولت عليـه فى أمرى كلـه ، [30] واستمسكت بعروتـه الوثقى / ومتين حبله ، فتلقانى بالترحاب ، وأرانى من بشره الافق المنجاب ، وأنجدنى

194) من الوافر : قائله أبو نواس . الديوان ج 2 ص 191 .
وكم أبصرت من حسن ! ولكن عليـك ، لشقوتى ، وقع اختيارى
195) كما فى ت ، وفى بقية النسخ : لوزرائكم . والمعنى أصح فى ت .
196) من الوافر . لم أعثر على قائله .

عند اسلام النصير ، وفراق القبيل والعشير ، وكان لى يدا على من ناوانى (197) ، وسيفا على من عادانى ، ورفع عنى بيد عزته الضيم ، وكشف بنور همته سواد الغيم ، الى أن قلت هذه نشيدة النجح (198) التى أظلت فيما سلف ، وهذا مركز الفضل الذى رجع (199) اليه من اختلف ، والحمد لله الذى شرفنى بوجوده وادخر لى زمانه ، وعطف على روض همته نستظل ظلاله ، ونجتنى أفنانه ، واعتقدت أنه جنتى من المحاذير ، وحمايتى من المقادير ، وذهلت عما فى الغيب من أحكام العزيز القدير ، فجريت فى أغراضه على أحسن سنن ، وبذلت من طاعته كل قصد حسن ، وقمت بحقوق بره جهد الاستطاعة ، ووصلت فى شكر فضله اليوم باليوم والساعة بالساعة ، ولم يزل هو حفظه الله تعالى يعيد فى الفضل ويبدى ، ويسدى الى

---

197) فى أ : نوانى ، والأصح كما فى ت : ناوانى ٠

198) نشد الضالة ، ينشدها نشدة ونشدانا : طلبها وعرفها ، ونشدت الضالة اذا ناديت وسألت عنها ٠ « اللسان » ٠
والنجح والنجاح : الظفر بالشىء (اللسان) ٠ فى ب وح 2 وت : النجم ٠

199) فى ت : يرجع ٠

من النعم الجلائل ما يسدى ، ومن أجلها التأويـل الذى صنعه لى فى الديون ، التى قاسيت من أهوالها سكرات المنون ، فشفى به دائى ، وعجل من يد النصارى فدائى ، بعـد أن تورطت مـن أشراكهم فى أوحـال ، كنت أرى الخلاص منها من الممتنع المحال ، / فيا لها فعلة جل قدرها [31] عن الثمن ، وغريبة فى الزمن ، تخلـل ذكرهـا بغـداد العراق وصنعاء اليمن ، ولو لم يكن له على الا هاته المنة التى وكفت ، لحسبت (200) وكفت .

ومنها الوظائف ، التى حشرها نحوى طوائف ، وان لم يصح منها فيما بعد سوى تسويد الصحائف .

ومنها النعمة التى لم يسمع بمثلها فى المدد المديدة ، والعهود البعيدة ، فسارت مسير الامثال ، وعدت مـن نوادر النوال ،

---

200) فى ب وح 1 وت : لحسبتها .

فســـار بهـــا مـــن لا يسير مشمـــرا
وغنى بها من لا يغنى مغردا (201)

وهى هبته لى الدار ، وان حديثها لعبرة لأولى الابصار ، وذلك انى فى أيـــام تعلقى بجنابه ، وترددى لبابـــه ، واستيلائى مـــن حبه على لبابـــه ، كنت مكتريا لمحـــل ، فأكـــراه ربه لغيرى قبل حلول الأجل ، ولم يعلمنى بذلك حتى حان الأوان وحل ، فتعذر على المرتحل ، ولم أجـــد اذ ذاك سوى دار خـــلا ، قد لبست البـــلى ، وتعطلت من الحلى ، فلم يرتضها الشيخ لى سكنا ، وتملا (202) غيظا وحزنا ، وظن ان اكراء الدار التى كنت بها أمـــر دبـــر بليل ، ونتيجة مكر من أولئك القبيل ، فألزمنى بجواره ، والنقلة للسكنى معه بداره ، / فنزلت بعلوه ، ورأيت [32] مـــن بره وحنوه ، ما لا عـــين رأت ، ولا أذن سمعـــت ،

---

201) من الطويل • قائله المتنبى • الديوان : ج 1 ، ص 291 •
من قصيدة اولها :
لكل امرىء مـــن دهره ما تعودا   وعادة سيف الدولة الطعن فى العـــدا
يقـــول فيهـــا :
وما الدهر الا من رواة قلائـــدى   اذا قلت شعرا أصبـــح الدهر منشدا
فسار بـــه مـــن لا يسير مشمرا   وغنـــى بـــه مـــن لا يغنـــى مـــغـــردا
202) امتلأ وتملا بمعنى (اللسان) •

فانتظم شملى الذى كان نثيرا ، وأصبح قليلى بجواره كثيرا ، وحللت منه محل الحميا فى الكؤوس ، ووقعت منه موقع البشائر فى النفوس ، وأشركنى فى نهيه وأمره ، وأطلعنى على سره وجهره ، ولم ينفرد عنى بقصة ، ولا اختص دونى من الدار بحصة .

واقتضى اذذاك رأيه السديد ، وفعله الحميد ، أن يزيد فى غيظ بنى عبيد ، بأن نرصد دارا نشتريها ، وهو يوفى قيمتها من ماله ويقضيها ، فتراخيت أنا فى تعاطى الاسباب ، حذر التثقيل على ذلك الجناب ، وان شممت (203) من عزمه أصدق سحاب ، ولا زال (كذا) هو يحثنى الحث (204) الذريع ، حتى سمع بأن دار العروسى (205) معدة للبيع ،

203) فى ت : شممت ٠

204) ساقطة من ب وح 1 وت ٠

205) هذه الدار من ديار الاندلسيين بالعاصمة ٠ صاحبها على بن محمد العروسى، من اعيان التجار ، رئيس مجلس التجارة والشاشية ٠ (انظر الاتحاف : ج 8 ، 162) ٠ ولعل هذه الدار من ملك والده ، بيعت لما صودر بمال على يد شاكير ٠ (الاتحاف : ج 8 ، 25) ٠ وعائلة العروسى شهرت الى اليوم بصناعة السروج ٠

فتـــوجه بنفسه لـــتقليبهــا ، فـــأعجبتـــه ورضى بها ، فاشترى منهـــا منـــاب الصبى وأمـــه ، وبقى السدس من كاملها على ملك ابن عمه ، وقد كان فى همه عازما على جمعه وضمه ، فكان ثمن المنابين المذكورين ، نحو اثنى عشر الف ريال ومائتين ، دفعها وهو على أكمل ما يكون طلاقة وبسطا ، وكان بها أعظم منى سرورا وأوفر قسطا ، حتى كأنى قد منحته ما أعطى ، ووهبها لى وهو بأتم ما يكون مـــن الرضى ، وأشهـــد العـــدول بهـــذا المقتضى (206) ، وقد كان أخبرنى وهو الصادق/ اللهجة، [33] انه من غد هبتها أخبر السيادة بما يعضد هاته الحجة ، فان تذكرتم ما كان أخبركم به فى شأنها ، فـــان لكـــم صدق الدعاوى من بطلانها ، وان تطابق مـــا بشريف علمكم ودعواى ، فيا بشراى !! ويا نجح مسعادى !! .

فلما تسامع النـــاس بقضتها ، استعظمـــوا وقـــوع هبتها ، وتلوا : « وما نريهم من آية الا هى أكبر مـــن أختها » (207) ، فقلت : فضل صدر عن محله ، وبرجاء

206) العبارة ساقطة من ب وت .
207) سورة الزخرف ، آية 47 .

من أهله ، وكم مغبوط بنعمة وهى داؤه ، ومرحوم من بلوى وهى دواؤه ، الى غير ذلك من النعم التى يضيق الكتاب عن شرح يسيرها ، فضلا عن كثيرها ، لكن العلم بأصيلها وشهيرها ، يغنى عن بسطها وتفسيرها، وأنا وان عجزت عن مجازاة منته التى لا تحصر (208) ، فقد شمرت فى التشيع والحب عن ساعد لا يطال ـ بحمد الله تعالى ـ ولا يظهر ، وجلت فى الثناء على جواد هو الاسبق الاشهر ، حتى علمت فى مجال الشكر (209) بسمة لا تلتبس ولا تنكر ، وقد جعل الله الشكر وفاء بالنعم ، وان جل قدرها وعظم .

وكانت اقامتى بتلك الغرف ، الباذخة الشرف ، فى جوار أبى دلف (210) ، نحوا من شهرين ، ما كانت الا كطرفة عين ، ثم ارتحلت لا عن ملال ، ولا ذم خلال ، ولكن

---

208) فى ح 1 : لا تحصى .
209) فى ب وت : التشكر .
210) انظر دائرة المعارف الاسلامية بالفرنسية ، فصل القاسم بن عيسى العجلى . (م 226 هـ / 841 م) . وهو احد قواد المامون ثم المعتصم ، كان شجاعا كريما ، له « البزاة والصيد » ، و « السلاح والنزه » و « سياسة الملوك » .

مقام بلغ أمدا ، ورحلة انتهت الى مدى ، / فسكنت بتلك [34]
الدار ، التى لم يحصل منها غير الاعتبار ، بمواقع
تصاريف (211) الاقدار ، فما صفا لى منذ سكنتها يوم ،
ولا ذاق جفنى فيها حلاوة نوم ، فمكثت فيها برهة ، لم
أر عافية ولا نزهة ، الى ان ضرب الدهر ضربانه (212)،
وأقام القدر برهانه ، فتقلص ذلك الظل ، وطوى
منشوره طى السجل ، فكأنه كان حلما تحت اليقظة
خيال غروره ، وتمويها ذهب الحق بزوره ،

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر (213)

والسبب الذى جر لى من الشيخ داء الضمائر، وفساد
السرائر ، حتى دارت على منه أسوأ الدوائر ، فصرت
الى وخيم المصائر ، أنا أسسته لنفسى ، بسقوط

211) فى ب و ح 1 وت : تصريف ٠
212) ضربان الدهر : حدثانه ٠
213) من الطويل : من الشواهد النحوية ٠ بقطر الندى ٠ ذكر فى العقد الفريد : ج 5 ، 340 ٠

رأيى (214) وضعف حدسى ، فندمت على ما ضيعت فى أمسى ، وذلك انى لما امتزجت به امتزاج الدم ، عزم وأم ، ولقد أتم ، بأن يصنع فى دينى التأويل ، فتعذر عليه القصد والسبيل ، اذ هو ـ حفظه الله ـ طريقه الى النصارى منبتة ، ولا علقة له بهم ألبتة ، سوى الحاج يونس المستاوى (215) وبرزونى (216) ، وهما لما علما شدة حظوتى لديه حسدونى (كذا)، الى أن صار الدواء دائى،وأكبر أعدائى، وهو رعاه الله يعلم ما انطويا عليه من الدخل، فسعيهما لا ينجح منه عمل، ولا يتأتى أمل، [35] فرأيت / أن أستعين فى هذا الغرض ، والمهم الذى عرض ، بمن هو والكفر روحان فى جسد ، فعنده مع النصارى أعظم يد ، وطالما جعلهم لأغراضه اقوى مستند ، محمود ابن عياد (217) ، بل ابن عاد ، حسن ظن به اعتقدته، واغترارا به ما رويته ولا انتقدته، والعجلة

214) فى ب وح 1 وت : رأسى .
215) لم أقف على ترجمته . وهو من السماسرة التونسيين ، المقربين الى النصارى .
216) يبدو من اسمه ، انه من السماسرة الايطاليين لم اقف على ترجمته .
217) (م . 1880) صنيعة الباى ، ومنتهب اموال الدولة ، انظر : الاتحاف ج 4 ، خاصة ص : 114 ، 146 ، 149 ، والصفوة : ج 2 ، 7 ـ 8 .

من النقصان ، وليس يحمد قبل النضج بحران ، ويا ليت شعرى كيف ملك الضلال قيادى ، حتى أشكل على أمرى فى المبادى ، ولكن لينفذ حكم من له الحكم ، ويرمى قضاءه فما يخطىء السهم ، والا فحاله مما لا لا يخفى عمن يفرق بين التمر والجمر ، فأحرى بين النفع والضر ، بأنه متلفة ، وجوده عدم (218) ، كم قطع بمن قصده على القدم (219) ، فقربه تلف ، وبعده تحف ، يبرز فى ظاهر أهل السمت (220) ، وباطن أهل السبت (221) ، فعله الظلم البحت ، وأكله الحرام السحت ، ضميره خبث ، ويمينه حنث ، وعهده نكث ، وقد بلوت الأيام ، وعاشرت أصناف الأنام ، من الكفر والاسلام ، وأهل النقض والابرام ، والخاص والعام ، فلم أعثر له على شبيه ، فلعنة الله عليه وعلى أبيه (222)،

218 ـ 219) العبارتان ساقطتان من ب وح 1 وت •

220) السمت : الطريق • اهل السمت : اهل الخير •

221) اهل السبت : هم اليهود • ويعنى المنافقين •

222) فى حاشية أ : « فى الاصل ، بعد قوله وعلى أبيه ، مضروبا ، أى المؤلف ضرب عليها بالقلم فاثبتها هنا • هـ » •
وابوه هو محمد ابن عياد • (1852 ـ 1853) • ترجمته : الاتحاف : ج 8 ، 89 ـ 91 وانظر ج 4 • 31 ، 55 ، 80 ، 116 ، 117 •

نسأل الله سبحانه أن يعامله بغدره ، ويهدى لوضعه رافع قدره ، حتى يطفىء (223) بجـدول السيف نـار شره ، ويحسم بعلاج الحق سبب ضره ، وينفذ / فيـه [36] حكم الله تعالى بمقتضى أمره ، فلما أعلمته بقصدى ، وحركة رصدى ، فتح لى أشراكه ، ونصب تحت المطامع شباكه ، سبحان من أبدعه ! فما أعظم خدعه ! فاغتررت بزخرف محاله ، قبـل اختبار حاله ، وفـى ظنى انـى حصلت من عهده مـا لا يتطرق النكث الى وفائـه ، ولا يتوصل الكدر الى صفائه ، والقدر يضحك من ورائى ، ويزرى بقبح (224) آرائى ، فسعيت فى اصلاح ما بينه وبين الشيخ من العداوة التى تحل العزائم ولا تحـل ، وتفل الصوارم (225) ولا تفل ، ولا زلت (كذا) أجهد فى شأنه، وأستمطر له سحائب(226) احسانه، بحيث انى مهما دخلت عليه ، ولا ترددت ثانية اليه ، الا وذكره فى فمى

223) فى ح 1 : يكفى .
224) فى ت : بقبيح .
225) فى ب وح 1 وت : الصرائم . وهى ج صريمة : العزيمـة على الشىء وقطع الامر . والصوارم : ج صارم : وهو السيف القاطع .
226) فى ب وح 1 وت : سحاب .

نبديه ونعيده ، وحبه فيه نلهج به ونشيده ، حتى حل منه بألطف محل ، وألقى اليه ازمة العقد والحل ، وهي منة طوقته اياها ، وجنة أطلعته بروضها ورباها ، ويسرت له من ثمراتها جناها ، اذ صداقة الشيخ من أعدها فقد اكتنز خطيرا ، ومن نالها فقد نال فضلا كبيرا ، وخيرا كثيرا ، ومن ابتاعها بمتاع الدنيا فقد آثر أثيرا .

وها أنا أعرض للسيادة بعض ما ناله منها بسببي ، ولم يمكنه التوصل اليه الا بي ، لانه اذ ذاك تقصر خطاه عن رتبي ، فمن ذلك هبة المناب الذى يملكه الشيخ من دار رجب ابن عياد (227) ، / بعد ان طبقت [37] خصومته البلاد ، والسبع الشداد ، وكم من محاول لهذا المراد ، ما أبدى ولا أعاد ، ومنه تجديده في الوطن [القبلي] (228) بزيادة شهرين في مدة العام ، حتى يكون

227) أشار ابن ابي الضياف الى هذه الدار في ترجمته لصاحبها ، الاتحاف : ج 7 ، 37 • وقد ساعد باش كاتب ابن عياد على تحصيله دار الحبس التي احتاج اليها لبناء داره •

228) كما في ب والزيادة من الناسخ •

مبدؤه بعد أن يقيس الصابة اللزام ، بغير زيادة فى اتفاق الالتزام (229) ، فأنا الذى ألزمت الشيخ أن يفرغ معكم جهده ، حتى أتم قصده ، فربح الشقى تلك المدة ، الى غير ذلك من جواهر المنن الرفيعة القيمة ، قد كنت أنا سببا لبذرها فى مساقطه العقيمة ، فعدمت منه جوازيها ، ولا حمدت عوائدها ولا مباديها ، وقاتل الله القائل فى قبره ، فطالما غنى بقوله فى شعره :

من يزرع الخير يحصد ما يسر به
وزارع الشر منكوس على الراس (230)

أنا والله زرعت فى هذا المنافق خيرا ، فلم أحصد الا شرا ، ولا اجتنيت (231) الا ضرا ، فانه عند ما تمكن من مصافاته ، حدر النقاب عن خفى صفاته ، فلا زال (كذا)

---

229) انظر : الصفوة : ج 2 ، ص 59 : كان « خراج الزيتون المسمى بالقانون فى الوطن القبلى أجحف باهله فى المدة الماضية ، حتى سلمت اصحاب الاملاك فيما يملكون ، ولم يتمبل منهم ، واغروا البوادى باحراقه للاستراحة من مطالبه » واللزام : هو محتكر الجباية والاداءات •

230) من البسيط : من الامثال •

231) فى ح 1 وت : اشتريت •

يتصنع الى الشيخ بكل معنى يقرب ، ويفسد بيني وبينه ويخرب ، فلما شعرت بقبيح (232) سعيه ، وعلمت حقيقة بغيه ، تحرقت وأفقت ،ولكن بعد ما فات الوقت ، ولا تسألوا عما أثار ذلك من استدراك نادم ، ومزلة قدم ، فلم يسعني اذ ذاك الا ان تجرعته على مضضه ، وتغافلت لغرضه ، / اذ قد صار أعلق مني [38] يدا ، فمباراته تزيدني ردى ، والحامل له على قدح زناد هاته (233) الشرور ، عدة أمور :

الأول هو انه عندما ألم ، بنفسكم الشريفة ذلك الألم (234) ، الذى خص وعم ، وقد ودت نفوسنا ــ علم الله ــ أن تفديك منه بحياتها، وقلوبنا بحباتها، الى أن

232) فى ب وح 1 : قبح •

233) فى ت : هذه •

234) هل هو المرض الوبائى ، الريح الاصفر او الكوليرة ، الذى ظهر فى تونس فى شهر ديسمبر 1849 (الاتحاف : ج 4 ، 128 ــ 136) ، فتكون الرسالة مكتوبة بعد هذا التاريخ ، او هو داء الفالج الذى اصاب البى فى 31 جويلية 1852 : (انظر نفس المرجع ، ص 140) • فتكون الرسالة مكتوبة بين 1852 و 1855 سنة وفاة الباى • انظر مقدمتنا اعلاه ص 41 ــ 42 •

أسبغ الله علينا بسلامتكم منه (235) لبـاس المنة ، وضيف الألم راعى فى التخفيف أعمال السنة ، نسأله سبحانه أن يجعل ذلك آخر حوادثك ، وأعظم كوارثك ، حتى تستديم عزك فى حماية من الألطاف مكينة ، ودرع من وقاية الله حصينة ، آمـين (236) .

فان ذلك الخبيث النية ، الفاسد الطوية ، ظن فى ذلك الوقت والعياذ بـالله ما ظن ، أعلقـه الله بحبـالـة مـا أضمر (237) وأجن ، أما تـرى ان والـده احتجب بداره ولزم الكن ، أظهر (238) التمارض والتشكى ، وأكثر التقاعس والتلكى ، وهى مكيدة من مكائد فعله ، وأحبولة من حبائل ختله ، لا تخفى وقد تقدم لها نظير ، أيام عداوته مع سى شاكير (239) ، ومثلكـم لا يغتـر بالرماد عـلى جمره ، ولا تخفى عليـه بواطـن أمـره ،

235 ـ 236) الكلمتان (منه) و (آمين) ساقطتان من ب وح 1 وت .
237) فى ت : أظهر .
238) فى ب وح 2 وت : وأظهر .
239) انظر ملاحظة عدد 180 ص 119 .

[ومــا] (240) مثله فى طلاوة علانيته ، وخبث طويته ، الا روث مفضض ، أو كنيف مبيض ... (241) ، / ولكن [39] يمهل الفاجر حكمــة مــن الله وعلمــا ، « انمــا نملى لهم ليزدادوا اثما » (242) .

وأما محمود ، مــن [أيــن] (243) يكون للأحــدب عزا وسلطانا (كذا) ، فقدم الغدر بى بين يديــه قربانــا ، ليستجلب وده ، ويتخذ يدا عنده ، فمن ذلك الوقت بدت عقاربه تدب ، وريح مكره تهب ، من غير أن تبدو له منى مضرة ، فقد وكلته لمن لا يبخس مثقال ذرة .

الثانى أن « نكولــه » (244) ، كلمته فى بيته ماضيــة مقبولة ، فأغراه بنكبتى ، وأراه الرشاد فى هدم (245)

---

240) ساقطة مــن أ • ومكانها بياض • ومــن هنا نقص فى ب وح 1 وت • وبياض كبير •
241) هنا ينتهى السقوط من ب وح 1 وت ، ويوجد بياض فى أ لعله كـلام مقذع حذف •
242) من القرآن • سورة آل عمران : آية 178 •
243) ساقطة من أ • مثبتة فى غيرها •
244) هو من السماسرة الاروبيين • لم اقف على اسمه الكامل •
245) فى ح 1 : عدم •

رتبتي ، الى غير ذلك من الأسباب ، التي يضيق عن تفصيلها الكتاب ، ومن تأمل فعل هذا الخبيث ، رأى رأى العيان مصداق الحديث (245 مكرر)، وهو «كتب الله على كل نفس لئيمة أن لا تخرج من الدنيا حتى تسيء لمن أحسن اليها» ، فقد وفت نفسه ما كتب عليها ، ولا غرو أن يجحدكم العز الذى البستموه، والحلم الذى أوليتموه،

فمن يفعل المعروف فى غير أهله
يلاقى الذى لاقى مجير أم عامر (246)

وأما ما كان من فساد الشيخ معى ، الذى كاد يسوقنى لمصرعى ، ويا ليت غائب الحمام قد قدم ، وباقى العمر قد انصرم ، فعسى أن / تكون بعد [40]

---

245 مكرر) لم نعثر عليه فى المصادر المعتمدة . ويبدو انه ليس حديثا .

246) من الطويل . من الشواهد النحوية . وام عامر هى الضبع . والبيت جرى مثلا . واصله : ان قوما خرجوا الى الصيد فعرضت لهم ام عامر فطردوها حتى الجأوها الى خباء اعرابى فدخلته . فخرج اليهم الاعرابى وقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صيدنا وطريدتنا . فقال : كلا ، والذى نفسى بيده لا تصلون اليها ما ثبت قائم سيفى بيدى .. فرجعوا وتركوه وقام وقدم للضبع حليبا ثم سقاها ماء حتى عاشت واستراحت ، فبينما الاعرابى نائم اذ وثبت عليه فبقرت بطنه وشربت دمه وتركته . فجاء ابن عم له يطلبه فاذا هو بقير فى بيته فالتفت الى موضع الضبع فلم يرها فاتبعها ولم يزل حتى ادركها فقتلها وقال البيت .

الممات راحة من هذا النصب ، وسلوة من هاته الخطوب والنوب ، وقد أبى القضاء الا أن أفنى عمرى فى بوس ، ولا انفك من نحوس ، حتى كأنى لست موضوعا الا لشكوى دهر ، وتقرير (247) ضجر وقهر ، وهكذا جدى (248) فما أصنع ؟ الله يعطى ويمنع ، [و] (249) ها أنا أعرفكم من ذلك بالاهم فالاهم ، وأختصر فى الكلم ، خوفا أن يطغى القلم ، بما يعود على جنابه بالذم ، فحسبى أن نجهد الدفاع والذب ، ولا أقول الا ما يرضى الرب ، فحقه علي أوجب ، فهو الذى لا يجحد ولا يحجب ، ولا يلتمس (250) منه المذهب ، على أنه يستحيل أن أناصب منه جبلا قضيتم له بالاستقرار والاستقلال ، ومن ذا يزاحم الاطواد ويزحزح الجبال ، ومن يعارض السيل بوشل ، ويناهض التشمير بفشل ؟؟ .

---

247) فى أ : تغرير ، اصلحنا حسب ح 2 ، وفى ب وت : تعزير ، وح 1 : تعزيز • اذ فيها اختلاف فى النقط •

248) فى ب وت : جرى •

249) مثبتة فى ب وح 1 وت ، ساقطة من أ وح 2 •

250) فى ح 2 : ولا يلتبس •

فأول (251) ذلك هو أنه بعد أن وهب لى الدار ، وشاع حديثها فى الاقطار ، وقمت بشكره على محافل الافتخار ، ولم يمض غير شهرين وقليل أيام ، حتى عرض لى فى أثناء كلام ، بأنه لم يهبها لى على التحقيق ، وانما هى حيلة لاغاظة ذلك الفريق ، وأنه يريد أن يأخذ ثمنها من فاضل الاوقاف ، فلم يكن منى خلاف ، ولم يقع فى نفسى من رجوعه كبير موقع ، ولم أتحرج منه ولم أجزع ، اذ الدار والوظائف ، وغيرها من اللطائف ، جميعها من فياض (252) بحر نواله ، / فهو [41] كم تقاضى ما له بماله ، ثم بعد أن استقريت (253) بتلك الدار ، التى هى شرك الاخطار ، تراكمت على سحائب الامراض ، وخلا الجو لابن عياد فباض ، ولا زالت (كذا) حيله (254) تريش لى وتبرى ، وسموم مكائده تسرى ، والعين الساهرة تصيب العين النائمة من حيث تدرى ولا تدرى ، الى أن نكى بى نكاية القضاء والقدر ،

251) ساقطة من ب وت ، وفى ح 2 : ودل ذلك .
252) فى ب وح 1 وت : فيض .
253) كذا . تصريف عامى تونسى .
254) فى ب وح 1 وت : حيلته .

وأثر في جـانبى تأثير النـار في يبس (255) الشجر ، فأحال الشيخ عن حاله ، واجتره الى حباله ، اذ هو درب بفك الاغلاق ، وخبير بمكائد الخراب ومذاهب الفساق ، فعادني اذ ذاك (256) بعض الاصدقاء ، الموجودين حيث كنت في الرخـاء ، الذين لا يدنيهم في الشدة ارخـاء ، ولا يثنيهم عن ذي الحظوة زهو ولا انتخاء (257) ، وذكر لي أن الشيخ نأى بجانبه عني الخلاف ، وأن جو وده غير صـاف ، وميزان عهـده ليس بـذي اتصاف (258) ، بانصاف ، فلم أعد قولـه فيما يحفظ ، بـل مما يترك ويرفض ، الى أن تواتر من غيره هذا الخبر ، فصار مما يعتبر ، فلم أشك أنه من مكائد ابن عياد ، وهو الذي أشاع حديثه في البلاد ، ولولاه لما اطلع أحـد على حال الشيخ وسره ، اذ هو ـ حفظه الله ـ منقبض عن (259) زيد الخلق وعمره ، وكنت / أنا اذ ذاك في عقب علـة ، [42]

255) في ب وت : يابس ، وح 1 : يبيس .
256) في ت : بعد ذلك .
257) انتخى الرجل انتخاء : تعظم وتكبر .
258) في ب وح 1 : ليس متصفا .
259) في ب وح 1 وت : على .

فقواى عن السعى منحلة ، فكاتبته أعلمه بما اتصل بى ، وأبحث عن سبب الزهد فى من بعد طلبى (260) ، فأجابنى بأن فى خاطره بعض تغيير ، ولكن لا يتجاوز حد التعزير ، لما كنت أخبرته حين كان مسافرا ، بأنى دفعت من الدين (261) عددا وافرا ، نحو الألفى (262) ريال ، مما تحصل من الولايات من فاضل المال ، وأن ذلك على يد [الـ] سمسار « جول » (263)، فوقع خبرى منه فى حيز القبول ، لما يعتقده فى من اعظام مقامه ، حتى لا أخبره من الكلام بخلبه وجهامه (264) ، وأنه سأل عنه محمودا ، فألفاه (265) من البهتان معدودا ، فتوجهت عند ذلك اليه ، لازالة التغيير الحاصل لديه ، وراجعته فى هاته البلية (266) ، وحومت فى رد ما قيل له من

260) يوجد خلل بهذه العبارة فى ب وح 1 وت .
261) فى ح 1 وت : الديون .
262) فى ب وت : ألفى .
263) ذكر المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ، فى هامش ح 2 ، أنه جول برزونى ، فلعله هو .
264) الخلب : السحاب لا مطر فيه ، والجهام : السحاب لا ماء فيه أو قد أراق ماءه .
265) فى ب وت : فوجده .
266) فى ب وح 1 وت : القضية .

الخبر ، على الحـــق المعتبر ، والوجوه المرضية ، ولا دليل
أرجـــح ، ولا برهـــان أوضح ، مـــن شهادة السمسار ،
فليرجع اليه الاستفسار ، وما يقوله في شأني مــاض ،
وأنا به راض ، وهو ممن لا يتهم بالكتمان عني ، فمحمود
أخوه وأقرب له مني ، ولم أكتف حتى أحضرت القائـــل
بعينه ، ليطلع الشيخ على واضح مينه ، وأعدت الحديث
بحضرته ، وذكرته في أن الدفع على يد السمسار كـــان
باشارته ، فلم / يسعه في ذلك الوقت ، على ما هو عليه [43]
من البهت ، الا أن أقر ، بصدق ما كان صدر ، عني من
الخبر ، لكنه اعتذر ، بأن الشيطـــان أنساه اياه ، بـــل
أغواه ، وجذبه في شطن (267) هواه ، فلا حياه الله ولا
بياه ، ثم ما فرغت من التنصل من هذا الذنب ، الا وقد
زاد الشيخ في العتب ، بأن مداخيل الوكـــالات ، انمـــا
أعدت لخلاص ما على من الديون والتباعات ، وأنا صرفت
محصولها في شهواتي ، فقد كتب الله أن لا ناتي ، الا
بمـــا لا يـــواتي ، فبينت لــه جميع محصولهـــا بمـــا لا

267) الشطن : الحبل الطويل ٠

يتطرق (268) اليه خلاف ، برسوم محاسبات وكلاء
الاوقاف ، فكان جملته ثمانية آلاف ، ثم حاسبنه على
مصرفها (269) بما لا غبار عليه ، ولا شبهة تعتريه ،
فمن ذلك المدفوع فى الدين المشار اليه ، ومن ذلك
نحو الالفى ريال وخمسمية ، أتممت بها تلك البقية ، من
تلك الدار المخزية ، وما بقى من العدد صرف بعضه فى
ضروريات القوت واللبس وغيرهما من الامور ، فى
مدة تقرب من تسعة شهور ، وبعضه فى مهمات الدار ،
من أبناك وفرش ونحاس وفخار (270) ؛ وشرحت له
جميع ذلك فصلا فصلا ، مما لا يحتمل النقيض أصلا ،
[44] / ثم بعد أن تأملها تأمل منتقد ، وتتبعها واجتهد ، قال
ان نحو الالفين من المصاريف المذكورة ، لم تدع اليها
كبير ضرورة ، انما هى من تأنقات الرفاهية ، وان كانت
هى (271) فى نظرى من الضروريات البشرية ، اذ أنا

268) فى ب وح 1 وت : يطرق .
269) فى ب وح 1 وت : مصروفها .
270) انظر فى هذه الكلمات : ملحق القواميس العربية لدوزى
271) (هى) ساقطة من ب وح 1 وت .

ما صرفت فى الاقوات ، الا ما به قوام الحياة ، وفى اللباس ، الا ما به انتظام حالى بين الناس وفى الفرش والاثاث ، الا ما لا تمكن بدونه السكنى واللباث ، وما دريت أن هاتيك الولايات ، مسميات ، لا تدفع فقرا ، وأن الدار جنة يجوع من حل بها ويعرى ، وأنها فى التحقيق (272) دار عثمان ، مياهها غالية الاثمان (273) ، ورزق الساكن بها أضيق من سم الخياط ، يعدم فيها اللباس والبساط ، وحسبه من الانبساط ، والارتياح والنشاط ، الافتخار بمجرد وجود الدار والساباط (274) ، لكن نفس الشيخ لا تتحمل كثرة المعارضة ورد الكلام ، ولا ينفع معه الا التسليم والاستسلام ، فلم يسعنى الا أن تبت واستغفرت واعتذرت من غير ذنب ما قدرت ، الى أن ظهرت عليه أمارات الرضى ، وجعلنى فى حل مما مضى ، فما

272) فى ب وت : الحقيقة .
273) تضمين المثل : «الماء فى دار عثمان له ثمن » .
274) السباط ، والساباط : سقيفة بين دارين تحتها طريق . وهى من خصائص الفن المعمارى التونسى . ومن له دار تحت ساباط كان يعد من اصحاب الجاه والثراء .

[45] شككت (275) فى أن ما كان بخاطره قد زال وانقضى .

ولما اجتمعت به بعد ذلك لقيت منه اجتنابــه ، / ولم نر منه ما نعهده من الانابة ، فرمت معالجة الفساد قبل احكامــه ، وحله دون انبرامه ، فأعدت له الكــلام الذى كان (276) بالامس ، حرصا على براءة النفس ، ولم أدع فصلا الا أوسعته بيانا ، وأقمت عليه من الحق برهانا ، فلم تجد (277) حججى ولــم تغن ، ولا زال (كذا) يعتقــد أن (278) الالفين صرفتها فيما لا يعنى ، والعجب كيف خفى عليه ما أدليت به من الدلائل والشواهد ، وغابت عنه تلك القواعد ، فلما رأيت منه الاعراض عن الادلة والاعذار ، أمسكت عن الركض فى ذلــك المضمار ، وملت لمجــال التوبة والاستغفار ، فاسترضيته من ذلك بكل مقال لو توسل به للكواكب الزاهرة لتزحزحت من مراكزهــا استلطافا ، وهشت من آفاقها استنزالا واستعطافــا ،

275) فى أ : شكيت : عامية تونسية ، فى ب وت : شككت .

276) فى ح 1 : كان لــه .

277) فى ب وت : تنهض .

278) الى هنا تنتهى ح 1 . والباقى ضائع .

ولو تنسمها الروض ما ذوى ، أو ظهرت للخلق ما رمد أحد بعد ما شوى ،

كلام لو أن الميت نودى ببعضه
لاصبح حيا بعد ما ضمه القبر (279)

فأرانى اذ ذاك من الغفران والعفو ، ما يكر على العتب بالمحو ، وعلى غيم الذنوب بالصحو ، الا أنى لما لقيته بعد الفتنة على حالة من الجفاء ، فأمسكت عن اعادة الحديث اذ ما بثقلها خفاء ، ولا زلت (كذا) أنا محافظا/على الجانب، [46] سالكا من بره ورعى حقه على السنن اللاحب ، عملا بالواجب ، ولا زال (كذا) الاعراض منه يشب ، حتى اذا حضرت (280) أحجب ، واذا غبت لا أطلب ، بحيث لم يزده ذلك الاستعطاف الا نفارا ، ولا زاد قلبه من الود الا خلوا واقفارا ،

279) من الطويل . لم اعثر على قائله .
280) فى أ وت : أحضرت . والصواب . حضرت كما فى ب و ح 2 .

اذا محاسيني اللاتي أدل بها
كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر (281)

وفي أثناء ذلك جاءني الجيلاني (282)، تابع الضال الشيطاني، يخبر عن مستمعه، و [قد] (283) أثر في قلبي موقعه، وهو أن الشيخ يريد أن نمكنه برسوم الدار، التي تقلبت في أطوار، وتمحضت عن عجائب الليل والنهار، وأن نكتب له فيها شهادة بالارتهان، في ذلك الاوان، فلم أجد بدا من اسعافه في الوقت، ولعمري ما أبلغه من مقت، وكاتبته عند ذلك بجواب، خرج فيه عتاب، بقاسر الطبع، وعجز فيه حاكم العقل عن الرد والدفع، وها أنا أعيد لكم ما قلت فيه، والجواب لازال (كذا) محفوظا عنده فخذه واطلع عليه، وهو ما معناه، وذلك الحق الذي يعلمه الله ويراه، اذ هو عن بابه ردني،

281) من البسيط • في الصدر خلل • والبيت منثور في أ • لم أقف على القائل •

282) هو من الاشخاص الثانويين •

283) ساقطة من أ وح 2 مثبتة في ب وت •

وارتجع / منى جميع ما بـه أمدنى (284) ، فقـد حططت [47]
بباب الله رحلى ، ورحمته لا تضيق عن مثلى ، ثم أكدت
العتب (285) ببعض ملق ، وخلطت الباطل بحق ، فقلت
ولئن هو أسخط المولى ـ أيـده الله ـ بحظوتـه لديـه
وقربه ، فقد بقى لى من لا سبيل لأحد على غضبه ، وهو
الله جل جلاله ، وتقدست صفاته وكماله ، وقد كان فى
ظنى أنى مدحته فى ضمن ذلك بما ليس وراءه غاية ،
حتى رفعت فى الغلو والاطراء الراية ، حيث زعمت أن
جنابكم العلى طوع يده ، لا يحيد عن أغراضه ومقصده ،
وان كان لى فيك اعتقاد، واخى (كذا) قواعد الاسلام، بأنك
مستقل فى ملكك بالقيـام ، متحل بكمال الاستبداد ،
يشهد بذلك الحساس والجماد ، فلما وقف على جوابى ،
وفهم فحوى خطابى ، قابل ما تضمنه من لطيف العتاب ،
بكتائب التنكيل لا بالكتاب ، فأرسل لى فى تلك العشية ،
تابعه عطية (286) ، فافتك من يدى أوامر سائر المساجد،

---

284) فى ت : أمرنى .

285) فى ب وت : العتاب .

286) من الاشخاص الثانويين .

وعرفنى بأن الشيخ حنق (287) من خطابى واجد ، فترك
قلبى مستطارا ، وأضرم فى أحشائى نـارا ، فحاسبت
نفسى وناقشتها، وفحصت عن سيرها (288) وفتشتها،
[48] فما عثرت على / جريمة وجيعة ، تقتضى مرارة قطيعة ،
سوى العتاب المبين ، ولا يغضب منه [ذو] (289) دين ،
وخشيت ان تراخيت عن استرضائـه ، يتفاقم سيـل
جفائه ، حتى يظهر لى منه ما يعجزنى سده ، ولا يمكننى
رده ، فأرسلت له من الغد بعض الاحباب ، لينوب عنى
فى استعطافه أحمد المناب (290) ، فلما اجتمع به قـام
وقعد ، وأبرق وأرعد ، وماج غيظـا وأزبـد ، وواجهـه
بالسب المقذع ، والهجو المفظع ، والتهديد بالوعيـد ،
الذى يشيب الوليد ، ويلين الحديد ، فتضرع له ضراعة
الصبى للمعلم ، بل [اليهودى] (291) للمسلم ، فلم يكن
منه سوى الرد ، والاصرار على الصد ، فرجع منه أخسر

287) ساقطة من ب وت .
288) فى ب وح 2 وت : **سرهـا** .
289) ساقطة من أ ، مثبتة فى غيرهـا .
290) فى ب وح 2 وت : المتاب .
291) فى أ مكانها : الذى .

من بائع السدانة (292) ، ومضيع الامانة ، وعرفنى بانه متوجع من الكتاب غاية التوجع ، والذى رأى أكثر من الذى يسمع ، والله يستر مما منه يتوقع ، فما استتم اعادة الخبر ، الا وقد طافت بى من خدامه (293) زمر ، فارتجعوا منى جميع ما كان أعطانيه من جليل وحقير ، وبالغوا فى البحث والتنقير ، على البشكير والحصير ، والنقير والقطمير (294) ، حتى لم يتركوا من نعمة لدى ملقط طير ، فعجبت اذ ذاك من الشيخ / مع كمال دينه، [49] وصدق يقينه ، كيف غطى الغيظ على نور لبه ، حتى غضب من قدرة خالقه وربه ، وخفيت عليه عوائد الله فيمن حارب قدرته ، ونازعه جبروته وسطوته ، ولو كان فى الخلق ، من يغالب كبرياء الملك الحق ، لكنت أنت لسمو مكانك ، وجلالة شانك ، أولى بذلك وأحق ، اذ الحر منا عبدك المسترق ، وأضربت عن لقائه اذ ذاك

292) السدانة : خدمة الكعبة .
293) فى ب وت : خواصه .
294) انظر هذه الكلمات : « ملحق القواميس العربية لدوزى » .
النقير : هو الاناء الذى يحمل فيه اللبن بين اثنين .
القطمير : هو حطب عناقيد العنب .
البشكير : كلمة تركية معروفة .

صفحا ، خوفا (295) أن أزيد زناد غيظه قدحا ، ولم تمض بعد هذا غير يسير أيام ، حتى أتانى منه أحد الخدام ، وألزمنى بيع الدار قسرا (296) ، فترك النفس حسرى ، وصارت الصغرى التى كانت الكبرى ، ففيدتها فى الحين ، وأنا قريح العين ، وحان لى يوم شر ما ظننت أنه يحين ، ورب مغلوب أعطى بالرغم قياده ، وان ملك طاهره لم يملك فؤاده ، فلم تكن اقامتى بها الا كسحابة صيف ، أو المام ضيف ، بل خيال طيف ، حتى ارتحلت عنها (297) على أسوأ مرتحل ، قارعا سن الندم والامر جلل ، ويا ليتنى ما حللت أعتابها ، بل ما وطئت ترابها ، بل ما قبلتها راسا ، ولكن كان ذلك لشقاوتى أساسا ، فعجب الناس مما كان بين وردى والصدر ، وتعوذوا بالله من / سوء الغدر ، اذ (298) بينما الدار مشيدة ، [50] والولايات عديدة ، والهمة بعيدة ، والحظوة أكيدة ، والابواب يقرعها البشير ، والسرور قد شمل الاهل

---

295) فى ب : خوفا ، وفى باقى النسخ : خوف •
296) فى ب و ح 2 وت : قهرا •
297) فى ب وت : منها •
298) ساقطة من ب وت •

والعشير ، اذ صارت الدار أثرا ، والولايــات روايــات وخبرا ، والاستار مهتوكة ، والاعراض منهوكة ، وصار ذلك التشريف تحقيرا ، وذلك التعريف تنكيرا ، وسائر الحركات قد سكنت ، وأيدي النوائب قد تمكنت ، فكأن لم يسمر سامر ، ولا نهى ناه ولا أمر آمر ، فيا له هول بعيد الشناعة ، وحادث كقيام الساعة ، لا ينقضي منه عجب لناظر ، ولم يسمع بمثلــه في الزمن الغابر ، قــد أصبح حديثــه نقــل كــل لسان ، وصيرني ضحكة كــل انسان ، لا نعلم له سببا وخطبا ، سوى ذلك التوحيد الذي اعتقد (299) ثلبا ، فيا لها حسنة عدت ذنبا (300) ، اللهم غفرا ، وان لم أقل كفرا ، وهبه جريرة ، فلا أظنها الا صغيرة ، فقد كان يكفي الشيخ ، أن لا يتجاوز حــد التوبيخ ، وان كان هو يراه عتبا مليما ، وذنبا عظيما ، فمثله من له الخلق الاسمح ، والعقل الارجح ، فهــلا كان

299) في ب : أعتقده .

300) هنا تنتهي ب وت . نهاية ب : « انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونــه وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين 1307 . اهـ » .
ونهاية ت : « انتهى كما وجد والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى وهو حسبنا ونعم الوكيل . اهـ » .

الى العفو الـذى هو أدنى مـن الله أجنح ، ولـو كـان
[52] الغضب يفيض على صدره ويطفح ، أحرى (301) / وقد
تقدمه ما يمحوه من الحسنات ، وينسخه مـن الطاعـة
الآيات المحكمـات (302) ، ومـن الامثـال المشهورة ،
السيئة اذا وقعت بين حسنتين لم تكـن الا مغفـورة ،
ولله در من قال ، فى طبق الحال :

أذا مـا خليـلى أسـا مـرة
وقـد كـان فيما مضى مجمـلا
ذكـرت المقـدم مـن فعلـه
فلـم يفسد الآخر الاولا (303) ،

ولو فرضنا أن طبعه يخلد الآثار ، فى الاخذ بالنار ،
ولا يقيل العثار ، فلا يبلغ بـه التشفى الى هـذا الجفاء

---

301) هنا تنتهى النسخة الاصلية (أ) ، والحقت بها كراسة باربع ورقات ، بخط حديث • وقد خلفت صفحة بيضاء •

302) فى ح 2 : البينات •

303) من المتقارب • قائله طاهر بن عبد العزيز • العقد الفريد : ج 2 ، ص 121 • وقد ورد باختلاف :

اذا مـا خليلى أسا مرة وقد كان من قبـل ذا مجملا
تحملت ما كان من ذنبه ولـم يفسـد الآخـر الأول

البحث ، ولا الى كل هذا التنكيل والمقت ، حتى ينقطع السبب بجملته ، ويذهب المعروف بكليته ،

[53] وسواي ينشد في سواه ندامة

يا ليتني لم أتخذه خليلا (304)

وأما أنا فحسبي أن لا أحسن ظني بعده بابن ناس ، ولا نغتر بسمة ولا خلق ولا لباس ، ولا أتعرض لجنابه بباس ، فقد اخترت الوقف مذهبا ، حتى لا نترك للحجة علي سببا ، وان كان هو قد أعتقني من رق احسانه عتقا لا يستحق بـه ولاء ، بما رماني به من النكبات التي تتابعت ولاء ، فأول الاحسان مرتهن بآخره ، وماضيه موقوف على غابره ، كما صرح به سيدي ابن عطاء الله (305) في حكمه ، ونوابغ كلمه ، بأن الفوائد في

---

304) من الكامل • لم اعثر على القائل • والبيت منثور في ح 2 •

305) هو احمد بن محمد بن عطاء الله الاسكندري (م• 1309) صوفي مشارك في انواع من العلوم كالتسفير والحديث والفقه والنحو والاصول • من مصنفاته : «اصول مقدمات الوصول» • و «التنوير في اسقاط التدبير» ، و « المرقى الى القدير الابقى » • انظر : معجم المؤلفين لكحالة ج 2، 121 • والاثر المشار اليه هو المسمى « متن الحكم العطائية » وقد طبع بتونس 1340 هـ • وهو متداول • والحكمة المشار اليها « ان رغبتك البدايات ، زهدتك النهايات ، وان دعاك اليها ظاهر ، نهاك عنها باطن » •

النتائج لا فى المقدمات ، بقوله : « ان رغبتك البدايات زهدتك النهايات » ، وها أنـا (306) الآن أحاكمه / الى [54] عدلكم ، وأشكوه الى انصافكم وفضلكم ، فهل فى جميع ما فعله معى بعد هاته المعرة ، مغتبط لنفس حرة ، أو ما يساوى جرعة ماء مرة ، وهل أنا الا (307) كمن صام حولا ، ثم شرب بولا ، ويا ليته لم يفعـل معى نفعا ولا ضرا ، حتى لم يبق لى فى المخزيات ذكرا ، ومثله لا يفعل ما يحتاج فيه الى أن يبدى عذرا ، أو يقال له فى مستقبل الحال « لقد جئت شيئا نكرا » (308) ، وقد علم الله أنى لم أشكه الى أحد قبل السيادة قط ، وطويت الجوانح على ما لدى من السخط ، ومهما سئلت عن هذا الغرض ، وعن سبب الجفا الذى عرض ، أجمل المفسر ، وألم من الكذب ما تيسر ، وأثنى الثناء الجميل ، وان لم يقض من بره / تأميل . [55]

فها أنا عرفتكم مـن قصتى ، وما انطوت عليـه مـن

---

306) وها انا : ساقطة من ح 2 .
307) ساقطة من ح 2 .
308) من القرآن الكريم ، سورة الكهف ، الآية 74 .

قصتى ، بنزر يسير ، وتافه من خطير ، اذ استيفاء الجزئيات عسير ، ومثلكم من يقيس الشىء بالنظير ، ويستدل على الكثير باليسير ، ولا تسألوا عما نشأ لى من ذلك من مرض همى شيب رأسى ، وأبلى جديد لباسى ،

قد حلت لونا ، وما بالجسم من سقم
وشبت رأسا ولم يبلغنى الكبر (309)

ثم ترادفت الامراض البدنية ، لضعف القوى النفسانية ، وطال على بذلك الامد ، حتى أخنى على الذى أخنى على لبد ، فلا دار ولا سند ، والبيت صفر والكيس لا يتضمن بيضا ولا صفرا (310) ، وفى الحديث « كاد الفقر أن يكون كفرا » (310 مكرر) ، الى غير ذلك من الهموم / والآلام ، التى لو زفع الغطاء عن ذرة منها لذهلت [56] العقول وطاشت الاحلام ، ورب عيش أخف منه الحمام ، وما كل حقيقة يشرحها الكلام .

309) من البسيط • لم أعثر على القائل •
310) فى أ : صفر بالرفع •
310 مكرر) رواه ابو نعيم فى « **الحلية** » عن انس بن مالك •

والحاصل أنه فد ذهب جاهى ومالى ، وانكسف بالى ،
وتخوفت ـ والعياذ بالله ـ فضيحة حالى ، ولم يبق سوى
رجاء لى فيكم وآمالى ، فما أنا الا غريـق ، وقد تشبثت
باديالكم نناشدكم الله فى بقية الريق ، ولم يبق وفت
للانتظار ، ولا موضع للاصطبار ، فردوا حالى الى احسن
حال ، وأظهروا على عنايتكم التى تشد لها الرحال ، فقد
جعلت وسيلتى اليك رسول الحق ، الى جميع الخلـق ،
فانكم انما تعاملون فى من لا يضيع عمل عامل (311)، ولا
[57] يخيب أمل آمل ، وهو سبحانه أوفى من / ضمن اجرا ،
وأكرم من أربح تجرا ، ولى بتشيعى فى حبك مزيـة ،
ووسيلة أثيرة حفية ، وان قصر فيما يجب لسيدى منى
عمل ، فانه لم يقصر رجاء ولا أمل ، فهذه وسيلة عبدك
فان لم تكن للقبول أهلا فأنت للاغضاء أهل ، وان كانت
مقاصدها وعرة فجنابكم للقاصدين سهل ،

حاشـا لمثلـك أن يضيع ضراعتى
ولمثل حبى أن يكـون مضاعـا (312)

311) اقتباس من القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، الآية 195 « انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر وانثى » .
312) من البسيط . لم اعثر على القائل .

وغاية رجائى أن تشرفنى ببعض خدمك ، وتنظمنى في سلك خواص خدمك ، حتى أكون كل يوم مكتحلا بتراب قدميك ، واقفا كسائر عبيدك بين يديك ، فذلك أقصى أملي لو ملكت عنان أمرى ، وخيرت فيما أتمنى على دهرى ، ولولا العوائق التى حالت بينى وبين المراد ، وضيقت على رحب البلاد ، / للففت العزيمة وهاجرت ، [53] وأعملت الرحلة وسافرت ، فطوبى لقدم سعى (313) فى منهاجك ، ولوجه تلثم بمثار عجاجك ،

وهنا ينبغى أن نلقى عصا التسيار ، ونقض من عنان الاكثار ، وأنا معترف بما جرى منى من الفضول ، لكن العفو عندكم مأمول ، وهو لكل معترف مبذول ، وفى المثل « ان الاعتراف ، يهدم الاقتراف » .

فاصفح لعبدك يا مولاى مغتفرا
ما كان من خطا أو منطق خطل

313) مؤنث وقد يذكر .

بقيت للدين والدنيا لتكلأها
اذا حلا الغمض في الأجفان للمقل (314)

هذا والمسؤول من الله تعالى أن يصل لكم سعدا تبهر العقول عجائبه ، وعزا لا يراع حماه ولا يذعر جانبه ، وصنعا الهيا / لا تلتبس مذاهبه ، ونصرا [59] تجوس خلال الديار كتبه وكتائبه ، ولا زال ملككم مثوى العفاة ومحط الآمال ، وبابكم العلى كعبة الأفضال ، ولا برح تضرب بصدق عزمكم الأمثال ، ومهما طمحت نفسكم النفيسة الى غرض بعيد قرب منه المنال ، ومدت أعناقها الآمال ، والغاية التي لا تنال ، فتفوز منها بمنتهى الكمال ، والسلام من لاثم تربك ، ومؤمل خدمتك وقربك ، محمد بن محمد المناعى (315) .

حقق الله لسيدنا الخير ، وبارك له في المقام والسير .
[آمين] (316) .

314) من البسيط .
315) في ح 2 فلان . وانظر المقدمة اعلاه ص : 23، اذ اشتهر بحمدة تمييزا له عن ابيه .
316) مثبتة في ح 2 وساقطة من أ .

فهرس الاعـــلام

فهرس الابيات الشعرية وقد رتبت على حسب حروف قوافيها

فهرس الاماكن

فهرس

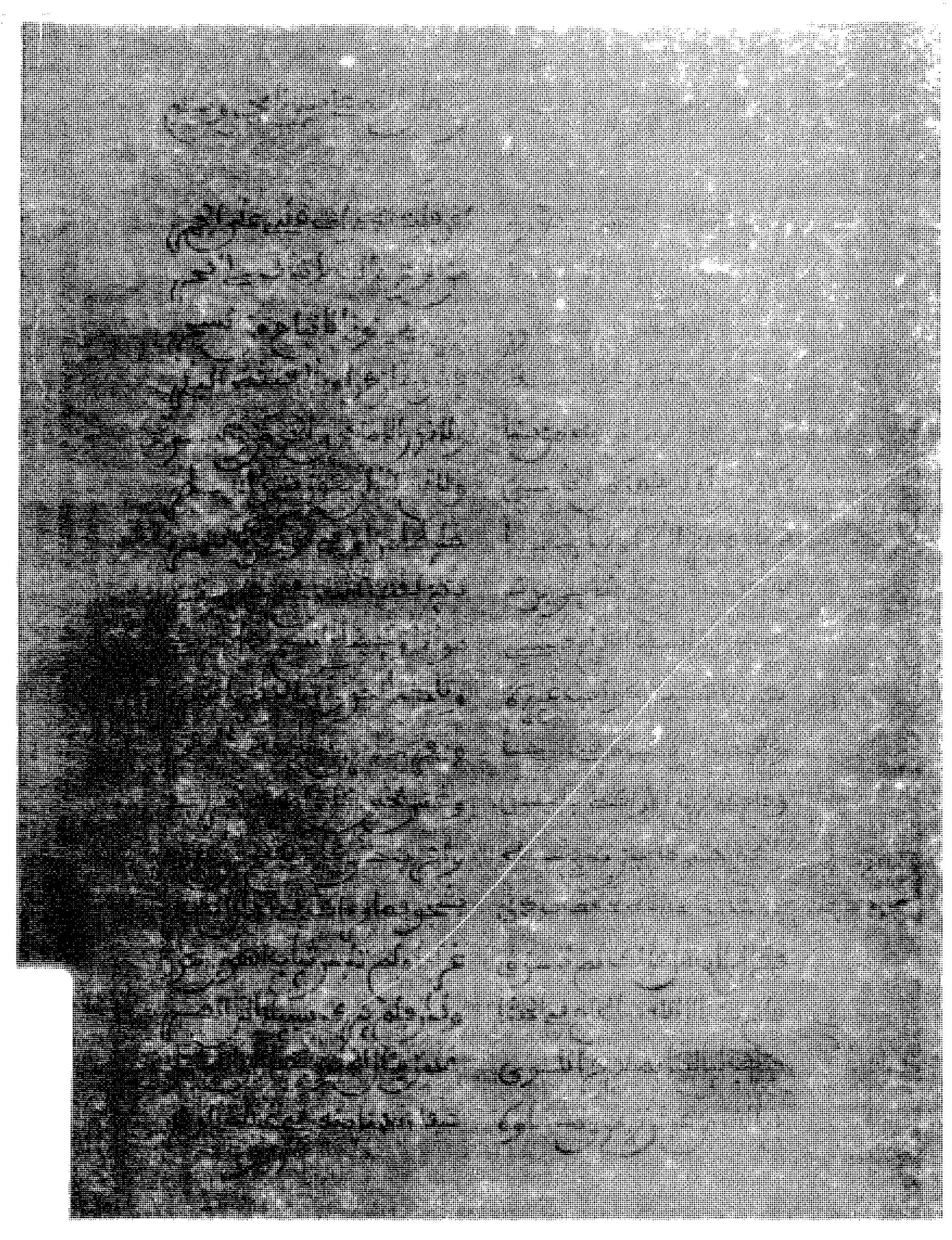
المقدمة :

الفهارس :

تم طبع « **رسالة المناعي** »
بمطبعة الدار التونسية للنشر
ذو الحجة 1397 / ديسمبر 1977
ـ تـــونس ـ

للمحقق

قسمة وطرح : مجموعة قصصية صدرت عن
الدار العربية للكتاب 1977



تمثل صورة الغلاف احدى قاعات العرش بقصر باردو تعلوها صورة احمد باي الاول وتمثل صورة الغلاف الخلفية صفحة من رسالة المناعي بخط يده مضمنة لقصيدة شعرية .